عبد الناصر والثورة العربية

أحمد صدقي الدجاني

مقدمة

"الثورة العربية " هي من أهم الظواهر في تاريخ العرب المعاصر . وستبقى وسيبقى مصير الوطن العربي لفترة قادمة مرتبطا بهذه الظاهرة وحين نتحدث عن الثورة العربية باعتبارها الحركة التاريخية لجماهير الأمة العربية على مدى الوطن العربي كله، يتداعى الى الخاطر جمال عبد الناصر... الرجل الذي قاد مسيرة هذه الثورة على مدى ثمانية عشر عاما.

وهذا كتاب عن " عبد الناصر " والثورة العربية " نقصد به أن نتعرف على الثورة العربية في عهد عبد الناصر . نبين ما وصلت اليه فكرتها وما قطعته مسيرتها بقيادته . وهذه المعرفة ضرورية لكل عربي يتطلع للمساهمة في وضع مستقبل الأمة العربية وتحقيق النصر لها . وان يعرف من أين وإلى أين .

يصدر هذا الكتاب في الذكرى الثالثة لرحيل عبد الناصر. وقد برزت فكرة كتابته أول ما برزت اثر نكسة حزيران (يونيو) ١٩٦٧ استجابة لالحاح شعور بحاجة شبابنا الى المعرفة العلمية للثورة العربية ولدور عبد الناصر، وبحاجتهم أيضا الى تقويم علمي للتجربة العربية الثورية، يجيب عن التساؤلات التي طرحتها النكسة حول مسيرة الثورة.

وحين رحل عبد الناصر فجأة يوم ٢٨ أيلول (سبتمبر) ١٩٧٠ وانتقل إلى الرفيق الأعلى زاد الحاح ذلك الشعور واشتدت الحاجة الى المعرفة والتقويم فقوي الدافع لمباشرة الكتابة . وقد شارك كاتب هذه السطور منذ النكسة في نشاطات فكرية تتصل بهذا الموضوع فساعده ذلك على رسم الخطوط الرئيسية للدراسة . ثم شارك بعد الرحيل في القاء محاضرات وندوات عن عبد الناصر والثورة العربية كان لها فضل اغناء أفكاره حول الموضوع.

وهكذا تبلور مخطط تفصيلي للدراسة يتضمن تحديد المقصود بالثورة العربية وعطاء عبد الناصر لها . ويعرض لبناء عبد الناصر قاعدة الثورة في مصر العربية... وتحديده لمصر المكان والدور، واستلامه السلطة ، واعلان الثورة المبادىء الستة، وتطبيق كل مبدأ منها، وتقويم ما أنجز بايجابياته وسلبياته ثم يعرض لقيادة عبد الناصر الثورة العربية في الوطن العربي بلورته لفكرة القومية العربية ، ودوره في تحرير الأرض العربية وانشغاله بتحرير فلسطين ، في السعي لتحقيق الوحدة العربية ، وفي بناء الاشتراكية في الوطن العربي ، وفي اغناء التجربة التنظيمية وطرح البناء التنظيمي العربي الواحد ، وتقويم ما أنجز بايجابياته وسلبياته . ثم يعرض أخيرا لمشاركة عبد الناصر في بلورة فكرة العالم الثالث... رسم سياسة الحياد الايجابي و عدم الانحياز ، ودعم حركة التحرر العالمي ، والدعوة الى السلام القائم على العدل، والى التعاون من أجل الرخاء . وضمن كل نقطة من هذه النقاط تندرج قضايا كثيرة . لا بد من طرحها و مناقشتها.

ولقد تبين بعد مباشرة الكتابة أن الوفاء بهذا المخطط التفصيلي الطموح يستوجب وقتا طويلا وتفرغا لاتتيحه مشاغل العمل العام . فلا مندوحة من انجازه على مراحل.

وهذا الكتاب هو ثمرة المرحلة الأولى . وهو يتضمن مدخلاً للدراسة ينتهي بتحديد عطاء عبد الناصر للثورة العربية. ثم تلى فصول هذا العطاء في مصر والوطن العربي والعالم ، وتركز على الجانب الفكري منه دون أن تغفل عن متابعة ما تحقق عمليا.

أول هذه الفصول تأكيد حقيقة عروبة مصر وهو ينشغل بالقاعدة وتأثير الفكرة فيها . ويليه فصل يبحث في مصر المكان والدور، وفصل آخر عن نضال ثورة ٢٣ يوليو لتحقيق المبدأ الأول من المبادىء الستة وهو القضاء على الاستعمار . ويبقى أن نتناول في دراسة أخرى المبادىء الباقية واحدا واحدا فنعرض للثورة الزراعية ونقومها، ونعرض لبناء جيش قوي ، ولاقامة حياة ديموقراطية، وللتصنيع الخ...

وهناك فصل عن بلورة فكرة القومية العربية وتحديد أهداف النضال العربي وهودراسة فكرية نظرية. ويبقى أن نتناول في دراسة أخرى التطبيق العملي لهذه الفكرة وما تحقق على طريق التحرير والوحدة ومسالك العمل العربي اوالأداة التنظيمية للثورة.

وأخيرا يأتي فصل عن المشاركة في بلورة فكرة العالم الثالث وهو يجمع بين عرض الأحداث ومعالجة الموضوع فكريا.

سيتضح من قراءة هذا الكتاب ان مؤلفه عالج الموضوع من موقع الايمان بالثورة العربية . وكان من أجل ذلك شديد الحرص على الموضوعية . وقد استفاد من دراسات عدة صدرت عن عبد الناصر والثورة العربية.

وكان حريصا أن يشير الى مراجعه، وهو يستشعر تقديرا خاصا لدراسات الدكتور جمال حمدان في الجغرافية السياسية وخصوصا في كتابيه " استراتيجية الاستعمار والتحرير " و"شخصية مصر. "
ولقد سار المؤلف في كتابه على أسلوب الدراسة التاريخية متأثراً من جهة بتخصصه ، ومستشعراً من جهة اخرى أن هذا الاسلوب الأفضل لتتبع حركة المسار ورصد تطور الافكار ضمن نمو الظاهرة .وسيلاحظ القارىء أن المؤلف حرص على الاستشهاد بكلمات عبد الناصر في مواضع كثيرة لتعتبر هي بنصها عن فكر الثورة العربية ، وليتتبع القأرىء خط سيرها في التجربة العربية الثورية.
ويرجو المؤلف أن يحقق هذا الكتاب هدفه فيساهم في التعريف بالثورة العربية في عهد عبد الناصر . كما يرجو أن يتاح له متابعة كتابة الجوانب الأخرى في هذا الموضوع.
والله الموفق
المؤلف
القاهرة - طرابلس الغرب
صيف ١٩٧٣

مدخل

اعمال عبد الناصر التي سيسجلها التاريخ كثيرة . ولكن عبد الناصر يدخل التاريخ في المقام الأول ويخلد فيه باعتباره رائد القومية العربية وقائد الثورة العربية الشاملة في العصر الحديث.
ان هذه الصفة تستوعب وتشمل جميع أفكار وأعمال وانجازات عبد الناصر على المستويين الوطني والقومي في مصر والوطن العربي . وعلى أساسها أصبح عبد الناصر زعيم الأمة العربية جمعاء ، وأول زعيم لها على المستوى القومي منذ صلاح الدين.
كما أن هذه الصفة كانت المنطلق الذي أنطلق منه عبد الناصر الى العالم أجمع واحتل به مكانه في العالم كواحد من عظماء القرن العشرين .
وهكذا فان عطاء عبد الناصر للتاريخ هو التحامه بالثورة العربية وقيادته لها على مدى ثمانية عشر عاما.
وهو العطاء الذي أوصل الى قيام الزعامة العربية الشاملة التي " لا تنحصر في الحدود السياسية التي تقوم بين الاقطار العربية ، ولا يعترف الولاء لها بمثل هذه الحدود ... والتي جعلت زعامة عبد الناصر نوعا متميزاً من الزعامات ، فما من زعيم عربي تمتع بهذا النوع من الزعامة أو أوجد لنفسه ولاء مثل الولاء الذي يشعر به نحو القيادة الناصرية في عموم الأقطار العربية " (١ . (وهو العطاء الذي طرح عبد الناصر " كداعية لثورة جديدة تستهدف استقلال كل العرب وتقدم انموذجا للثورة في العالم الثالث " (٢. (
ومن أجل هذا العطاء احتل عبد الناصر مكان القيادة في الوطن العربي وقد ساهم في قيادة العالم الثالث ونال تقدير الأمة العربية والعالم في حياته . ثم كان ذلك التعبير الرائع عن التقدير من هؤلاء جميعاً يوم وداعه.
وقد بدا هذا- المعنى في كثير من الأقوال التي قيلت بمناسبة وفاته في شتى أرجاء المعمورة، ونكتفي بايراد انموذج لها ما قاله المؤرخ العالمي توينبي " : لقد استثار عبد الناصر في العرب طاقاتهم الكامنة فكان رد الفعل هو ذلك التجاوب العميق الرائع من المحيط الى الخليج .
ثم استثار ناصر طاقات الشعوب المتطلعة الى الحرية فكان رد الفعل قيام ثورات تحررية مشتعلة في آسيا وأفريقيا واكبت سير القافلة الى الاستقلال واستثار عبد الناصر الاستعمار العالمي فكان رد الفعل ألوانا من العدوان ثم الاستسلام أمام القوى الصاعدة " (٣. (
وحين نتحدث عن عبد الناصر والثورة العربية فاننا نقصد أن نتعرف على الثورة العربية في عهد عبد الناصر ...نتبين ما وصلت اليه فكرتها وما قطعته مسيرتها بقيادته، لنصل الى الاجابة العلمية على السؤال الكبير الذي ألح عند فراق عبد الناصر القائد.
ماذا بعد؟ وما مستقبل الثورة العربية؟
ان هذا الحديث يستوجب منا بداية أن نعرض لبعض المواضع العامة المرتبطة به والتي لا بد من ايضاحها تمهيدا له وحسما لأي لبس يمكن أن يبرز فيه.
هناك أولاً تحديد معنى الثورة العربية الذي ينبغي أن يكون واضحا ومحددا قبل الحديث عن عطاء عبد الناصر في مجال الثورة العربية ... ويلاحظ في كثير من الكتابات التي تناولت هذا الموضوع افتقار معنى الثورة العربية فيها الى التحديد الأمر الذي سبب خلطا بين معان عدة وتشابكا بين دوائر مختلفة. وأبسط مثل هو تحديد الصلة بين معاني الثورة المصرية وثورة ٢٣ يوليو العربية والثورة العربية الواحدة أو الشاملة والثورة العربية الوحدوية الاشتراكية ، وما قد يتردد من تعبيرات في هذا الموضوع.
لقد جاء تعبير الثورة العربية على لسان عبد الناصر في مناسبات كثيرة . وشرح عبد الناصر في أكثر من مناسبة المقصود من الثورة معرفا اياها ومحددا أبعادا لها . من ذلك قوله في مجلس الأمة ٢٥ نوفمبر

١٩٦٥:
"ان الثورة العربية الشاملة... ما تزال هي القوى الأصلية القادرة على تحقيق الآمال العربية كلها . لكني أود أن أقول بوضوح ... ان الثورة العربية الشاملة لا يمكن أن تكون مجموعة من المغامرات أو الانقلابات، وانما هي الحركة التاريخية لجماهير الأمة العربية للقفز عبر التخلف ... الى التقدم السياسي والاجتماعي والثقافي ، مستندة على القيم الحضارية للامة العربية، محققة بالنضال الثوري أهدافها."
واضح من هذا القول أن الثورة العربية الشاملة لا تنحصر في جزء من الوطن العربي دون غيره من الاجزاء . وإنما هي الحركة التاريخية لجماهير الأمة العربية على مدى الوطن العربي كله . فبعد المكان فيها يشمل الساحة القومية جميعها . كما انها لا تقتصر على جانب واحد من جوانب الحياة للجماهير العربية وانما تنشغل بتلك الجوانب جميعا في تكامل جلي بين الثورتين السياسية والاجتماعية للقفز عبر التخلف الى التقدم السياسي والاجتماعي والثقافي . فمضمونها أيضا يتصف بالشمول . وهي- الثورة العربية- ليست مقطوعة الجذور تقوم في فراغ وانما تستند على القيم الحضارية للامة العربية، وتحمل رسالة العرب الحضارية الى العالم . فبعد الزمان فيها يمتد عبر قرون في الماضي ويستشرف آفاق قرون في المستقبل.
واذا كان عبد الناصر قد حدد في قوله السالف معنى الثورة العربية في وطنها وعلى ارضها، فانه وعى بعمق مكانها في عالم اليوم على الكرة الارضية ككل . فقد قال في خطاب له يوم ٢٠ مايو سنة ١٩٦٣:
..."ان الثورة العربية بقوى الشعب العاملة تزداد كل يوم قوة واندفاعا، وتقترب باستمرار والحاح من يوم انتصارها الكامل النهائي . وتشعر الثورة العربية أنها لا لا تمارس دورها وحدها. انها تشعر انها تقف، من التحالف العظيم لقوى الثورة المعادية للاستعمار والتخلف، هذه الثورة التي تقف فيها حركة التحرير الوطنية الهائلة التي تجتاح آسيا وأفريقيا وأميركا اللاتينية جنبا الى جنب مع قوى المعسكر الاشتراكي التي استطاعت أن تحقق انجازات سياسية واقتصادية وعملية جبارة."
واضح من هذا القول أن الثورة العربية ليست معزولة عن العالم المحيط بها ومن ثم فهي لا تمارس دورها وحدها. وانما تقف ضمن التحالف العظيم لقوى الثورة المعادية للاستعمار والتخلف. هذا التحالف الذي يجمع حركات التحرير الوطنية في العالم الثالث مع قوى المعسكر الاشتراكي في مواجهة الاستعمار العالمي . ولقد أكد عبد الناصر مرارا هذا التوجه العالمي للثورة العربية واقامه على اساس موضوعي ووعي علمي بطبيعة عالم اليوم . يتضح ذلك في قوله ببور سعيد يوم ٢٣ ديسمبر سنة 1966.
..."نحن في عالم لايستطيع أن يعيش فيه أحد بمفرده في عزلة عن غيره .. قوى العدوان تتقاسم فيما بينها الادوار ، والغنائم ... قوى السلام لا بد أن تتضامن فيما بينها ، لكي لا تتحول واحدة بعد واحدة فرادى وعزلاء لتصبح بعض غنائم قوى العدوان..
لا بد من تلاحم قوى السلام في العالم، حتى نستطيع ان نواجه قوى العدوان في العالم."
وهكذا يتحدد بدقة معنى الثورة العربية التي نتحدث عنها في هذه الدراسة كما فهمها عبد الناصر.
فهي ثورة الجماهير العربية على مدى الوطن العربي ضد الاستعمار والقهر بلوغا للتحرر السياسي ، وضد التخلف والاستغلال بلوغا للتحرر الاجتماعي وصنعا للتقدم ، وضد التجزئة وتعدد الكيانات بلوغا للدولة العربية القومية الواحدة . وهي في نضالها قوة من قوى الثورة العالمية المعادية للاستعمار والتخلف والمناضلة من أجل السلام والرخاء.
وعلى هذا فهذه الثورة العربية على مدى ساحة الوطن العربي ثورة شاملة وهي أيضا ثورة واحدة . وقد اطلقت عنيها اسماء ونعوت تفيد هذا المعنى . فهي " الثورة القومية العربية الشاملة " أو " الثورة القومية العربية الاشتراكية الديموقراطية " (٤) أو " الثورة الوحدوية الاشتراكية " (٥) . أو " الثورة العربية الحديثة "... الخ.
ونحن في هذه الدراسة سنستخدم تعبير الثورة العربية الذي استخدمه عبد الناصر ليفيد معنى الثورة العربية بأبعادها المختلفة جميعها... التحرري والاشتراكي والوحدوي والروحي والانساني.
ان هذا المعنى المحدد الشامل للثورة العربية لم يكتمل في الوطن العربي الا بعد قيام ثورة ٢٣ يوليو 1952 في مصر. وكان لعبد الناصر نفسه كما هو معروف وكما سيتضح من هذه الدراسة- فضل كبير في بلورته وتحديده . وعلى هذا فأننا حين نتحدث عن الثورة العربية فأننا نقصد الحركة التاريخية التي ظهرت في الوطن العربي منذ ٢٣ يوليو. والتي عبرت عنها مرحلة جديدة في النضال العربي . فالحق أن يوم الثالث والعشرين من يوليو سنة ١٩٥٢- كما افتتح الميثاق- " كان بداية مرحلة جديدة ومجيدة في تاريخ النضال المتواصل للشعب العربي في مصر " ونضيف ونحن ننطلق من منطلق قومي- أن ذلك اليوم كان ايضا بداية مرحلة جديدة ومجيدة في تاريخ النضال المتواصل للامة العربية جمعاء في الوطن العربي كله . وواضح من الحديث عن النضال المتواصل ان هذه المرحلة لا تنفصل عما سبقها ولا تقوم وحدها. ولكنها تتميز باكتمال معنى الثورة العربية فيها.
أن الثورة العربية بهذا المفهوم تعبر عن المرحلة الحاضرة في حركة اليقظة العربية الحديثة التي ظهرت في الوطن العربي منذ أواخر القرن الماضي ، وشقت طريقها صعدا لتحقيق انبعات الامة العربية وبناء نهضتها

بفضل جهود قادة الفكر المصلحين من امثال جمال الدين الافغاني ومحمد عبده وعبد الرحمن الكواكبي ونضال جماهير الشعب الذي تجسد في صور عدة طوال النصف الاول من هذا القرن . وهكذا فان الثورة العربية بهذا المفهوم لا تنطلق من فراغ ولا تمثل نبتا بلا جذور. وانما هي التطور الطبيعي ضمن الحركة التاريخية لليقظة العربية الحديثة.

كذلك فان الثورة العربية بهذا المفهوم تشمل جميع الحركات العربية الثورية التي قامت في الاقطار العربية منذ ٢٣ يوليو ١٩٥٢ لتحقيق اهداف النضال العربي ، والتي عبرت عن المد الثوري العربي الذي تلا تفجر الثورة العربية في مصر. ويمكننا ان نلاحظ هذا المفهوم للثورة العربية في اقوال عبد الناصر وأعماله .فقد رأى عبد الناصر في الثورات التي تفجرت منذ ٣٣ يوليو ١٩٥٢ في تلك الاقطار العربية اجزاء من " الثورة العربية " الشاملة والواحدة . ونكتفي للتدليل ايراد نماذج من أقوال كثيرة لعبد الناصر- فهو يقول : عن ثورة الجزائر في احدى المناسبات ..

..."ان ثورة الجزائر ملك للامة العربية كلها. ان أيام في الجزائر ترتبط بأغلى الذكريات وأعزها في قلوبنا " .

2 "يوليو ١٩٦٢ "

وعن ثورة ليبيا يقول في ٢٣ يوليو ١٩٧٠:

..."لقد حصل النضال العربي، على دور ليبيا كاملا ، لصالح الثورة العربية ولصالح التحرير العربي بقيام الثورة فيها."

وهو يقول عن ثورة السودان في المناسبة نفسها:

..."بعد هذا (يقصد النكسة) شهدت أرض الامة العربية ، الثورة السودانية، وصممت الثورة في السودان على أن تتحرر كليا من النفوذ الاجنبي .. وعلى أن تعمل بكل طاقاتها في اطار التضامن العربي وفي اطار الوحدة العربية. " ..

وهكذا فان تفجير ثورة الجزائر منذ عام ١٩٥٤ وعلى مدى ثماني سنوات ومعركة الاحلاف التي خاضتها الجماهير العربية عام ١٩٥٤، وكسر احتكار السلاح عام1955 ، وتأميم القناة ومجابهة العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦- ووحدة مصر وسوريا عام ١٩٥٨، وتفجر ثورة العراق عام ١٩٥٨، وتفجر ثورة اليمن عام ١٩٦٢، والتحرك الشعبي في السودان عام ١٩٦٤، وتفجر الثورة في الجنوب العربي حتى أواخر عام ١٩٦٧ ، واخيرا تفجر ثورتي السودان وليبيا عام ١٩٦٩... جميع هذه الحركات الثورية فضلا عن ثورة ٢٣ يوليو عام 1952 في مصر تنضوي تحت لواء الثورة العربية بالمفهوم هذا. كذلك فان جميع النكسات التي حدثت خلال مسيرة الثورة العربية ومثلت الجزر الثوري العربي، وأبرزها نكسة الانفصال عام ١٩٦١ ونكسة الهزيمة عام ١٩٦٧ والتجارب المرة في العراق وسوريا، تقع الى جانب الانتصارات ضمن التجربة العربية الثورية .

ولقد كانت ثورة مصر يوم٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ أول وأهم الحركات العربية الثورية في هذه المرحلة من النضال العربي مثلت بداية جديدة ومجيدة وجعلت من مصر قاعدة صلبة للثورة العربية . واذا كان البعض رأى فيها الثورة المصرية الوطنية فانها - وكما ابرزت مسيرتها - تجاوزت حدود اقليم مصر في تأثيرها وتعدت تلك الحدود الى الوطن العربي كله، وحملت الفكرة القومية وظهرت بوجه عربي صميم، فاكدت أنها ثورة مصر العربية واصبحت هذه الثورة من خلال التجربة العربية الثورية " ثورة يوليو الام " - كما أسماها البعض - " حيث رصع العالم العربي منذ قيامها بنسل دافق من الثورات التحريرية، تبدو كالاقمار حول الشمس أو كالنوايات حول النواة ، وكان لكل منها بدورها صداها العميق الفاعل، ابتداء من الجزائر وانتهاء باليمن " (٦) . وسميت ايضا " الثورة العربية الام " في " الثورة القومية الشاملة " (٧). ووصفت بأنها " قاعدة للعمل الوحدوي الثوري في الوطن العربي (8) " وتلتقي هذه الاسماء مع اسم " الثورة العربية النواة " الذي سنستخدمه للدلالة، على مكان ثورة ٢٣ يوليو في مصر من الثورة العربية عامة.

ان الحرص على ابراز وجه ثورة مصر العربي ومضمونها القومي يتفق مع واقعها ومع مفهوم عبد الناصر لها ، ومنطلقه في القيام بها. وتراث عبد الناصر يؤكد أن الرجل كان عربيا مصريا. والحق أنه لم يترك مجالا للتأويل في منطلقه ومفهومه لثورة ٢٣ يوليو حين قال:

..."الواقع أني دخلت الثورة المصرية كوطني وكقومي عربي ، ولا زلت هكذا الى اليوم ومعنى هذا في نظري أن الاولوية لبلادي ، وللامة العربية التي تعد بلادي جزءا منها ولقد كانت أقوالي وأفعالي متمشية مع ايماني بالقومية العربية "

"من حديث مع مراسل مجلة لايف في يوم ١٤ ٧ ١٩٥٩

ان ثورة ٢٣ يوليو كما هو واضح مما سبق جزء من الثورة العربية يقع ضمن دائرتها وهي وان لم تكن مرادفة للثورة العربية، الا انها نواتها الاولى و قاعدتها الصلبة.

وحين نتحدث عن عبد الناصر والثورة العربية فإننا ننطلق في حديثنا من وعي عميق لحقيقة الصلة بين الفرد ومجتمعه وبين القائد وجماهيرالامة ، ومن فهم كامل لدور البطل وحدود تأثيره ضمن حركة تيار التاريخ .

والحق أن هذا هو الموضوع الثاني الذي يستحق التحديد والايضاح ، ومعلوم ان قضية البطل في التاريخ كانت ولا تزال محل خلاف بين المذاهب التاريخية المختلفة. وان الخلاف حولها تراوح بين رأي يقول بأن تاريخ البشرية هو تاريخ ابطالها، ورأي مناقض يرى في الابطال افراد كانوا مجرد أدوات ولو لم يوجدوا لوجد غيرهم . وليس هذا المجال مجال مناقشة تفاصيل الموضوع وانما نكتفي بالقول أننا حين نتحدث عن عبد الناصر كقائد وكبطل ففي اعتبارنا ما أكده عبد الناصر مرارا من أنه جاء تعبيرا عن الوطن العربي في ظرف معين وفي زمان معين وأن دوره في قيادة الوطن العربي كان بمقدار تعبيره عنه. وفي اعتبارنا أيضا أن عظمة عبد الناصر كانت في قدرته الفائقة على استلهام ارادة الجماهير وصياغتها والتعبير عنها والالتحام الكامل بها .. بذلك اصبح عبد الناصر زعيم الامة وقائدها، ومن ثم رمز الثورة العربية وصار اسمه مرادفا لمدلول هذه الثورة . وتلك ظاهرة متكررة في التاريخ بالنسبة لعظام الرجال الذين قادوا الثورات الانسانية.
لقد كان عبد الناصر حريصا غاية الحرص على التأكيد أن الشعب هو المعلم وهو القائد وهو الرائد. وعلى التقليل من شأن دوره في قيادة هذا الشعب ، والتحذير من الاعتماد على الفرد . هو حرص يزيد في قيمة عبد الناصر ومنزلته ، ونكتفي بالاستشهاد ببعض اقواله في هذا المجال لنرى كيف كان عبد الناصر نفسه يفهم هذا الموضوع . فها هو يخاطب الامة في افتتاح مجلس الامة في مارس سنة ٦٤ قائلا :
... "ان الارادة الشعبية هي التي تملك ان تصنع قيادتها وأن تحدد لها مكانها . واني لأرفع صوتي هنا أمامكم محذرا من االأعتماد على الفرد.
ان الشعب يجب دائما أن يبقى سيد كل فرد.
ان الشعب أبقى وأخلد من كل قائد .. مهما بلغ اسهامه في نضال أمته.
أقول أمامكم هذا وأنا ادرك وأقدر ان هذا الشعب العظيم أعطاني من تأييده وتقديره ما لم اكن أتصوره يوما أو احلم به.
لقد قدمت له عمري ... ولكنه اعطاني ما هو اكثر من عمر أي انسان.
لقد أسلم الي أمانة لم أكن أتصور أن يتحملها فرد."
ان هذا الحديث ينبض بمشاعر ائمحبة والتقدير للشعب ، وهو ايضا يسلط ضوءا كاشفا على العلاقة الوثيقة بين الشعب والقائد وموقف كل منهما تجاه الاخر. ولقد تجلت هذه العلاقة بأروع صورها مرات كثيرة خلال قيادة عبد الناصر للثورة العربية . وكان من اعظم هذه المرات ما حدث . يومي ٩ و ١٠ يونيو سنة ١٩٦٧.
فكيف فهم عبد الناصر هذا الذي حدث؟ انه يقول يوم ٢٣ يوليو سنة ١٩٦٧ موضحا فهمه:
..."انني لم اعتبر لدقيقة واحدة ، أن خروج جماهير شعبنا برغم الظلام وبرغم غارات العدو مساء يوم ٩ يونيو تكريما لشخصي ، وانما اعتبرت أن ذلك الموقف كان تصميما على النضال . ولقد قلت مرات عديدة أن هذا الشعب قد أعطاني اكثر مما حلمت به في أي يوم من الايام.
...ولقد رفعت صوتي اكثر من مرة محذرا من الاعتماد على الفرد لأن كل فرد له دوره يؤديه ويمضي، ويبقى الشعب وحده من الازل الى الابد واذن فمن هذه الناحية ليس عندي ما أقوله.
...لقد كان موقف شعبنا يوم ٩ و ١٠ يونيو اكثر مما استحق ، واكثر مما يستحق اي فرد، ولكنه بالنسبة لي كان يحمل معان اخرى . معنى استمرار النضال ، ومعنى استعداد الشعب لكل التكاليف والتضحيات ، ومعنى التصميم على المقاومة والصمود."
ان هذه العلاقة الوثيقة بين القائد والجماهير حقيقة بارزة في التاريخ الانساني لا يمكن انكارها مهما كان الخلاف بين المذاهب التاريخية حول دور البطل في التاريخ . وهي تبلغ أوج قوتها حين يرتفع القائد من خلال مسيرة النضال الى منزلة الرمز... المنزلة التي احتلها عبد الناصر في حياته وخلد فيها بعد مماته.
لقد اجمع من تناولوا موضوع زعامة عبد الناصر للامة العربية على تسجيل حقيقة هذه الزعامة وتبين جوانبها. واتفقوا ان هذه الظاهرة لم تتكرر في التاريخ العربي منذ صلاح الدين .
ولسنا هنا في مجال استعراض هذه الاقوال، ولا في مجال دراسة أنماط الزعامة .ولكننا نقصد الى توضيح التأثير المتبادل بين البطل والامة كما جسدتها ظاهرة عبد الناصر والثورة العربية .. البطل الذي اخذ من امته كل شيء واستلهم ارادة جماهيرها فأحسن صياغة هذه الارادة والتعبير عنها والالتحام الكامل بها. والامة التي استجابت وسلمته زمام أمرها . واذا كان تحديد دور البطل من صنع التاريخ فإن البطل يساهم في صنع نفسه وصنع التاريخ . ولا بد من ملاحظة ان هذه العلاقة تعبر عن نفسها في حركة مركبة بمعنى ان آلية (ميكانيكية) هذه الحركة لا تتصف بالبساطة وانما تتداخل فيها عوامل عدة . فالبطل كفرد طليعي نخبة يتجاوز مجتمعه بعد ان يأخذ منه كل شيء ، ويسعى الى قيادة هذا المجتمع وصولا للاهداف التي اختزنتها احلام الجماهير. والمجتمع يحاول امتصاص البطل أو تطويقه بأساليب مختلفة من اخطرها احاطته بسحر التأليه . والبطل الحقيقي ينجو و ينجح في ارساء العلاقة على اساس صحيح يعطي للشعب حقه ويحفظ له قدره ، ويمكن البطل من القيام بدوره القيادي. وهذا ما نجح فيه عبد الناصر الى مدى بعيد.
ولا يفوتنا أيضا في هذا المجال ان نشير الى ان البطل لا يمكن ان يعمل بمفرده ولكنه يعمل كقائد لمجموعة طلائع ثورية تمثل بالنسبة اليه عصبته ويتبادل معها ثقة كبيرة . وقد توافرت هذه العصبة لعبد الناصر من

خلال تنظيم الضباط الاحرار كما التحق بها آخرون خلال المسيرة الثورية .
وهكذا فإن حديثنا عن انجاز عبد الناصر في مجال الثورة العربية محكوم بفهمنا هذا لدور البطل والعلاقة الوثيقة بين القائد والطليعة والجماهير. هذا الفهم الذي يرى فيما أنجزه عبد الناصر ثمرة نضال الجماهير الملتحمة به، وثمرة نضاله ملتحما بالجماهير.
وأخيرا فان الحديث عن عبد الناصر والثورة العربية يقتضي توضيح النظرة التي ننظر بها الى تراث عبد الناصر الفكري والعملي في التجربة العربية الثورية . كما يستوجب التنبيه الى طبيعة دور عبد الناصر في تلك التجربة.
من الطبيعي أن ننظر الى تراث عبد الناصر نظرة شاملة تأخذ هذا التراث بمجموعه، وترى فيه وحدة متكاملة. ولكن في اعتبارنا أيضا في الوقت نفسه حقيقتين . أولاهما : ان هذا التراث لم يتجمع مرة واحدة ، وانما هو حصاد التجربة العربية الثورية خلال قيادة عبد الناصر لها طوال ثمانية عشر عاما . بما يعنيه ذلك من ان عبد الناصر اعتمد في هذه التجربة التدرج وعرف التطور وانتهج اسلوب التجربة والخطأ. وثانيهما : أن عبد الناصر كان في هذه التجربة القائد المفكر والقائد المنفذ وجمع بين صفتين وقرن الفكر و التطبيق.
فبالنسبة للحقيقة الاولى نجد ان عبد الناصر دخل الثورة وقد توافرت لديه نظرات حول امور عدة ، ولكنه من خلال الممارسة سار سيرا حثيثا نحو بلورة النظرية ويمكننا أن نرى تلك النظرات في المبادىء الستة التي اعلنتها ثورة ٢٣ يوليو أثر قيامها، ونراها في فلسفة الثورة حين تناول عبد الناصر بالشرح بعدي الزمان والمكان . وقد وصف الميثاق المبادىء الستة بأنها " : كانت اعلاما للثورة وليست أسلوب عمل ثوري ومنهاج تغيير جذري. "
وآمن عبد الناصر بأهمية الممارسة ودورها في اغناء النظرات وانضاجها لتصبح نظرية ، وفي بلورة الفكر من خلال حقائق الواقع، باعتبار الممارسة هي التفاعل المستمر بين الفكر والواقع . وانطلاقا من وعي عبد الناصر للصلة العضوية بين القائد والجماهير كان واضحا في ذهنه ان الممارسة بما فيها من تجربة وخطأ هي الاسلوب المناسب.
ونلاحظ ان الميثاق سجل هذا المعنى حين قال : " لكن الشعب المعلم صانع الحضارة .. راح يلقن طلائعه اسرار آماله الكبرى ، ومضى يحرك المبادئء الستة بالتجربة والخطأ نحو وضوح فكري لصنع التصميم الهندسي لبناء المجتمع الجديد الذي يريده . وراح الشعب الكادح يكدس مواد البناء ويكتل جميع القوى الثورية القادرة على الاسهام فيه في صفوف آلجماهير."
ويشرح لنا عبد الناصر ايمانه بأهمية الممارسة ودورها في التجربة العربية الثورية، ويوضح لنا اسلوبه ومنهجه الثوري ، بشكل مبسط في مناقشات اللجنة التحضيرية للمؤتمر الوطني القومي للقوى الشعبية (٢٥ نوفمبر سنة ١٩٦١) وذلك بمناسبة اعداد الميثاق بعد عشرة اعوام من قيام الثورة ومن الممارسة المستمرة فيقول:
.. "ولم يكن مطلوبا مني في يوم ٢٣ يوليو ان اطلع ومعي كتاب مطبوع واقول ان هذآ الكتاب هو نظرية .. مستحيل ... لو كنا قعدنا نعمل هذا الكتاب قبل ٢٣ يوليو لم نكن عملنا ٢٣ يوليو.
في الاسلام ، كان يقدر ينزل مع سيدنا جبريل كتاب مطبوع ومجلد ويقول هذه النظرية، هذا هو القرآن، وهذه هي العقيدة . وقد حدث غير ذلك ليعطينا ربنا في حياتنا عبرة وعظة.
ابتدأ الاسلام بأشهد أن لا اله الا الله ، وأن سيدنا محمدا رسول ال له.. ابتدأ الاسلام بهذا .. جملتان ... لم يبدأ بكل ما هو موجود في القرآن ثم بدأ بعد هذا ايضا الاسلام يعطينا عبرا وعظة في حياتنا..
23سنة لغاية تمام القرآن ، وتم نزول القرآن . لماذا فعل الله ذلك؟ فعله حتى يعطينا الفرصة والدليل او الوسيلة التي نقدر أن نعمل بها في حياتنا وفي دنيانا."
ان هذا التفسير للقصد الالهي من تنزيل القرآن الكريم منجما يبرز أهمية الممارسة ودورها ويكشف في الوقت نفسه ايمان عبد الناصر بها.
وطبيعي ان الممارسة تحمل في طياتها التدرج والتطور والتجربة والخطأ، وصولا الى بلورة النظرية أو دليل العمل . وهذا يعني ان التطبيق الثوري فيها يسبق النظريات . وقد اوضح عبد الناصر في مناقشات اللجنة التحضيرية تجربته الخاصة في هذا المجال وكان مما قاله
..."في يوم ٢٣ يوليو لم أكن اعرف أبدا أن اتكلم الكلام الذي اتكلم به الان ، وذلك لاني لم امش يومئذ في تجربة آلعشر سنين التي وجدت فيها هذه المدة..
ان ظروفنا قضت ان التطبيق الثوري، تطبيقنا الثوري ، كان سابقا النظرية التي هي دليل العمل . عن أي شيء تكون النظرية هي تأتي عن دراسة المشاكل..
انا لا أستطيع ان احدد اين نقف .. الشعب هو الذي يحدد أين نقف.. أنا لن استطيع أن اقف الا اذا انتهى استغلال الانسان للانسان، وكل واحد اصبح يشعر أن فيه فرصة متكافئة مع الآخر."
وهكذا فاننا حين ننظر الى تراث عبد الناصر الفكري والعملي كوحدة متكاملة لا يغيب عن بالنا التدرج في صنعه ، ولا الحركة المتطورة المتصاعدة التي حكمت مسار تكوينه . وهذه النظرة تمكن من فهم مواقف

وأقوال في التجربة قد تبدو متباينة متناقضة وهي في حقيقتها متطورة.
ان هذه النظرة ترفض محاولة تصور التجربة او تصويرها كما لو كان مسارها الثوري مرسوما منذ البداية في جملته وفي أدق تفاصيله وفق ترتيب محكم سري من القائمين عليها. وهو اتجاه موجود في تفسير " الناصرية " و عرضها . وتؤمن نظرتنا بأن المفاهيم الثورية عند عبدالناصر تطورت في حركة صاعدة منذ ٢٣ يوليو ١٩٥٢ الى ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠.
ولكن هذه النظرة مع ايمانها بالتطور ترى في الوقت نفسه ان هذا التطور كان منطلقا من مبادىء ونظرات محددة حكمت مسار حركته، وكانت بمثابة مؤشرات له. ونضرب مثلا عليها ما جاء على لسان عبدالناصر في الكلمة السابقة : " لن استطيع ان اقف الا إذا انتهى استغلال الانسان للانسان "، وما وضح عند عبد الناصر منذ البداية من نظرة قومية. أما تفاصيل المسار فهو من صنع التيار التاريخي الذي أوجده تلاحم الشعب بالقائد.
وهذه النظرة تعني بالنسبة لنا انه وان كان واردا تقسيم مسار التجربة العربية الثورية الى مراحل عدة الا انه لا يمكن القول بالفصل الكامل بين طبيعة كل مرحلة. وان مثل هذا التقسيم لا يجب ان يأخذ بالاطلاق لانه يخل حقيقة بتفسير التجربة الناصرية . فنجد مثلا من يرى ان التطور انطوى على ثلاث مراحل هي مرحلة التوجه نحو الاستقلال (١٩٥٢- ١٩٥٦) ثم مرحلة تثبيت الاستقلال (١٩٥٦- ١٩٦١) واخيرا مرحلة التحول الاشتراكي (١٩٦١- ١٩٧٠ . (ويحصر هذا التصور نفسه في حدود مصر والثورة المصرية " الاقليمية " . فيقصر هذا التصور وهذا التقسيم عن تفسير التوجه العربي القومي الذي بدأ مع بداية الثورة ، وعن تفسير البعد الاجتماعي الذي بدت تباشيره آنذاك . كما نجد ايضا من يرى ان المسار انطلق من ثورة وطنية الى ثورة قومية الى ثورة قومية تقدمية . فمع قبولنا بالخط العريض لهذا التقسيم نجد ان التجربة تؤكد وجود التوجه القومي والتوجه الاشتراكي منذ البداية وستتجلى هذه الحقيقة في الصفحات القادمة.
وأما بالنسبة لحقيقة أن عبد الناصر كان في التجربة العربية الثورية القائد المفكر والقائد المنفذ ، فهي واضحة تماما طوال المسيرة الناصرية . وقد قدم عبد الناصر في عصره من خلالها أنموذجا للقائد الذي يجمع بين الصفتين ويقرن الفكر بالتطبيق . وتكرر ظهور هذا الانموذج في ثورات العالم الثالث على الخصوص، ولكن بقي انموذج عبد الناصر من أكثرها نضجا ووضوحا.
ولا شك في أن هذا الجمع خلص التجربة العربية الثورية من التباعد او التناقض بين الفكر والتطبيق اللذين يحدثان عادة في حالة الفصل بين الصفتين . كما اكسب نضال عبد الناصر قيمة كبيرة باعتباره نضالا عمليا قائما على وضوح فكري .. وليس مجرد نظريات وأحلام تقرأ في الكتب ولا تجد لها تجسيدا عمليا او اجراءات وتصرفات عشوائية تحمل اسم الثورية ولا تستند على فكر واضح.
ونحن حين ننظر لعبد الناصر المفكر والمنفذ فان في اعتبارنا الأرضية التي وقف عليها في وطنه العربي، وفي اعتبارنا ايضا العصر الذي عاش فيه والعالم الذي احاط به . خصوصا وان عبد الناصر كان حريصا على استشراف آفاق عالمه المعاصر، وعلى توفير الفكر المفتوح على كل التجارب في ثورته. فمن الطبيعي ان يكون قد تأثر وأثر- بشكل او باخر- في صنع التقدم العالمي.
بعد هذه البداية التي تمثل مدخلا لدراستنا ، نستطيع ان نبدأ حديثنا عن " عبد الناصر والثورة العربية " وبنظرة شاملة نافذة في تراث عبدالناصر نجد أن أعظم ما حققه القائد من خلال قيادته الثورة العربية هو:
·تأكيد الانتماء المصري الى الامة العربية. تاريخيا ونضاليا ومصيريا، وتحديد دور مصر العربي وبناء قلعة الثورة فيها.
·وبلورة فكرة القومية العربية وتحديد أهداف النضال العربي.
·والسير الحثيث على طريق التحرر العربي السياسي والاجتماعي وفي طريق الوحدة العربية.
·والمشاركة في بلورة فكرة العالم الثالث الذي يتبنى الحياد الايجابي وعدم الانحياز ويناضل في سبيل السلام القائم على العدل والتعاون الدولي من اجل الرخاء.
وبهذا الذي تحقق حدثت نقلة كبيرة في الوطن العربي وفي العالم الثالث خلال عهد عبد الناصر حتى اصبح أمرا طبيعيا التمييز ما قبل هذا العهد وما بعده فيهما.

تأكيد حقيقة عروبة مصر

حرص عبد الناصر اول ما حرص ومنذ بداية ثورته على تأكيد حقيقة الأنتماء المصري للامة العربية ، وعمل على ابراز وجه مصر العربي.
ونقول " تأكيد " لان هذا الانتماء حقيقة تاريخية ونضالية ومصيرية كانت موجودة دوما. ولكن هذه الحقيقة حجبت بغشاوة وأنكرت على المستوى الرسمي خلال النصف الاول من القرن على وجه الخصوص، حين تكاتفت قوى الصراع الفكري الاستعماري مع بعض القوى الحاكمة التقليدية على شن حرب عدوان عليها،

وسعت بقوة لاستبدالها بالانتماء االأقليمي المعزول الذي حاولت ان تجد له سندا في أغوار التاريخ السحيق كما حاولت من خلال هذا الانتماء استغلال مشاعر الوطنية للانحراف بها فطرحت شعار " مصر للمصريين " وصولا لشعار " مصر قطعة من أوروبا."

فأما حقيقة الانتماء المصري للعرب أمة ووطنا فنجدها على مر القرون وفي شتى العهود منذ ان اكتمل تكون الإمة العربية اواخر القرن الهجري الاول . وأصبح واضحا التمييز بين بلاد عربية تنطق بالضاد وبين بلاد أعجمية تجمعها معها رابطة الدين . وقد التحمت مصر ارضا وشعبا بالوطن العربي والامة العربية خلال تلك العهود، فلم تعرف المنطقة بين اجزائها حدودا او قيودا الى ان جاء الاستعمار الغربي الحديث منذ القرن التاسع عشر فأقام الحدود وفرض القيود. وهكذا كانت العلاقة بين الاجزاء في تواصل لم ينقطع، وكثيرا ما خضعت تلك الاجزاء لحكم واحد. ونلاحظ ان الحكم العثماني لها لم يمس وحدتها وكان حق المواطنة فيها شاملا لكل الاجزاء ولا يقف عند جزء بعينه. وتكفي نظرة لأسماء العائلات في مصر او في بقية الوطن العربي لنرى آثار ذلك ومدى ما لحقق من امتزاج بين الاجزاء فدوما نجد اسماء المغربي والجزايرلي والتلمساني والتونسي والحجازي والمكي والعراقي والبغدادي والنابلسي والشامي والعكاوي والقدسي والتهامي والطرابلسي ... الخ. و كانت تيارات التجارة والثقافة فيها تعمل في اتجاه التبادل والتفاعل المستمر بينها. وقد احتلت مصر بحكم موقعها ! وامكانياتها مكانا هاما في المنطقة العربية من خلال انتمائها العربي.

وعى شعب مصر هذه الحقيقة، فعبر عنها ذلك التعبير العامي الأصيل الذي تخلده المأثورات الشعبية حين قال عن " المصري " انه ابن العرب. كحما أكدت هذه الحقيقة الدراسات التاريخية والجنسية واللغوية والجغرافية والسياسية والاقتصادية التي تناولت مصر والمنطقة. ولسنا في مجال الحديث المفصل عما تضمنته هذه الدراسات، ولذا فانا نكتفي بالاشارة الى بعضها. فهناك ما كتبه جمال حمدان في " شخصية مصر " وما كتبه محمد عزة دروزة في " عروبة مصر في الماضي وإلحاضر " ودراسات بريستيد عن الحضارة المصرية وحضارات الشرق الادنى القديم . ودراسات بروكلمان وفرضية كابتاني ودراسات تفصيلية كثيرة لعدد من الباحثين (٩ .)

وتعرضت حقيقة عروبة مصر لمحاولات المسخ والتشويه على يد الاستعمار الغربي الذي نجح في التسلط على مصر في الربع الاخير من القرن الماضي . تماما كما تعرضت حقيقة العروبة في بقية الاجزاء للمحاولات نفسها على يد الاستعمار الغربي الذي تسلط عليها.

اما في ارض الكنانة فان الاحتلال الانجليزي الذي بدأ عام ١٨٨٢ عمل بنشاط وبسرعة على عزل مصر عن المشرق العربي والمغرب معا. فوضع مناهج التعليم التي تخدم هذا الغرض ، وتعاظم نتيجة لذلك الحديث عن التاريخ الفرعوني في محاولة للقفز عن الماضي العربي الاسلامي القريب الى الماضي البعيد. وتعرضت اللغة العربية لحملات ظالمة وظهرت الدعوة الى استخدام اللغة العامية ، وجرت محاولة فرض اللغة الانجليزية لغة للتعليم من اجل تصفية الرابطة اللغوية. ورفع حزب الامة شعار مصر للمصريين مستغلا الخلط القائم بين فكرة الوحدة العربية وبين الارتباط بالدولة العلية. وانبهر عدد من المثقفين بالحضارة الاوروبية فاندفعوا يحاولون ربط مصر بها، وتحدثوا عن شيء اسمه حضارة البحر المتوسط زعموا ان مصر تنتمي لها امتدادا لمحاولة الخديوي اسماعيل الأنغماسي الذي أراد أن يجعل من مصر " قطعة من أوروبا."

وقد نجحت هذه المحاولات في تغطية حقيقة عروبة مصر بغشاوة ، وحجبت شمسها بغيوم سوداء. خاصة بعد ان انساق بعض المثقفين في هذا التيار وسقطوا في أحابيل الصراع الفكري الاستعماري. فساروا وراء بعض المظاهر السطحية واستسلموا لواقع التجزئة وللظروف السياسية الوقتية التي حكمت المنطقة العربية.

وحفظت كتاباتهم ما يثير الاستغراب من آرائهم المعبرة عن هذا الاتجاه ، والتي تبين مدى عجزهم عن فهم حقيقة عروبة مصر. ويمكن ان نتعرف على نماذج من هذه الكتابات في دراسة أنيس صايغ القيمة عن تطور الفكرة العربية في مصر، وفي الفصل الجيد الذي كتبه ابراهيم الفحام عن " حالة الدعوة القومية في مصر قبل الزعامة الناصرية. "

وهكذا مر شعب مصر العربي بمحنة صعبة واجه فيها محاولات انكار انتمائه العربي ، بغية اضعافه والتحكم في مصيره وتعطيله عن القيام بدوره تجاه أمته العربية. تماما كما مر الشعب العربي في الاجزاء العربية الأخرى بالمحنة نفسها مواجها انكار انتمائه العربي . وكانت سياسة العزلة عن العروبة أو الاتجاه الى هذه السياسة عند ساسة مصر- كما يقول جمال حمدان " -مسألة مناورات تكتيكية تحتمها مصالح الرجعية الحاكمة ولا تدل على واقع الشعب الطبيعي أو اتجاهه الحر " (١٠ .)

وكان لسيادة الانتماء الاقليمي على المستوى الرسمي نتائجه الوخيمة على حركة النضال العربي في تلك المرحلة. وقد أوضح الميثاق الوطني ذلك حين شرح اسباب فشل ثورة ١٩١٩ في مصر وذكر منها " ان القيادات الثورية في ذلك الوقت لم تستطع ان تمد بعدها عبر سيناء ، وعجزت عن تحديد الشخصية المصرية/ ولما تسشطع ان تستشف من خلال التاريخ انه ليس! هناك صداع على الاطلاق بين الوطنيه المصرية والقومية العربية . لقد فشلت هذه القيادات في ان تتعلم من التاريخ ، وفشلت ايضا في ان تتعلم من عدوها الذي تحاربه، والذي كان يعامل الامة العربية كلها على اختلاف شعوبها طبقا لمخطط واحد " (١١) .

ونضرب مثلا على ذلك رفض سعد زغلول اقتراحا قدمه له بعض الساسة العرب اثناء وجوده في باريس سنة ١٩١٩ للقيام بعمل عربي مشترك ، ورده عليهم قائلا " ان قضيتنا مصرية وليست عربية ". وما رواه عبد الرحمن عزام من انه كان يحدثه يوما عن الوحدة العربية فقاطعه متهكما، " اذا جمعت صفرا مع صفر فالنتيجة صفر " . وقد رضي لطفي السيد ان يشترك بصفته رئيس الجامعة المصرية في افتتاح الجامعة العبرية بالقدس رغم تحذير الكثيرين من العرب له من الاشتراك في هذه المناس! بة. وفي عام ١٩٣٢ وافقت حكومة صدقي باشا على الاشتراك في المعرض الصهيوني وأصدرت أمرا بتخفيض أجور إلسفر بالقطار الى فلسطين (١٢. (

ولكن على الرغم من عنف تلك الحرب التي شنها الاستعمار الغربي وانساق فيها الأقليميون ضد عروبة مصر ، وعلى الرغم من نجاح محاولاتهم جزئيا في تغطية هذه الحقيقة بغشاوة ، نلاحظ ان الشعب العربي في مصر شأنه في بقية الاجزاء العربية كان ينطلق للتعبير عن انتمائه العربي بين حين وآخر وخاصة في المحن القومية استجابة لتلك الحقيقة وبدافع من عقيدته وقيمه الروحية. وهناك امثلة كثيرة على ذلك نشير من بينها الى موقف شعب مصر العربي من الغزو الايطالي لليبيا عام ١٩١١ ، حين اندفع الناس للتبرع اعانة للمجاهدين ودعما للجهاد، وتطوع بعض الشباب وعلى رأسهم عزيز المصري . وتجلى ذلك الموقف الشعبي في السخط الذي صبه على مقالات ثلاث كتبها احمد لطفي السيد في " الجريدة " ، لسان حال حزب الامة نعى فيها على المصريين تبرعهم ودعاهم الى الضن بأموالهم ، فتفجر السخط الشعبي حتى اضطر لطفي السيد " الى الانسحاب من الميدان والسفر الى قريته برقين ." وتولى محمد حسين هيكل مهام رئاسة التحرير نيابة عنه حتى يهدأ الناس . والقصة كاملة نجدها في مذكرات هيكل وهي تصور البون الشاسع بين الموقف الشعبي وموقف بعض المثقفين الذي أشرنا اليه (١٣.(

وقد بدا هذا الموقف الشعبي الاصيل خلال الغزو الفرنسي الاستعماري لسوريا ، ونجد شواهد له كثيرة في الادب والصحافة. كما تجلى ايضا وبصورة اقوى في التعاطف مع ثورة شعب فلسطين على الاستعمار البريطاني في الثلاثينيات . وقد تعرض هيكل لهذا الموقف الشعبي في مذكراته فوضح من حديثه البون القائم بينه وبين الموقف الرسمي الذي حاول تفسيره وتبريره ، فبعد ان تحدث عن الخطر الصهيوني ومقاومة شعب فلسطين له قال " لكن الحكومات العربية لم تكن تستطيع ان تفعل شيئا، فقد كان بعضها واقعا تحت النفوذ البريطاني كمصر والعراق وشرق الاردن ، وكان البعض الآخر خاضعا لانتداب فرنسا كسوريا ولبنان ، وكان سائرها مشتغلا بمشاكله الخاصة. لهذه الاسباب لم تكن الحكومات العربية تستطيع ان تمد لعرب فلسطين يدا . فأما الرأي العام العربي والاسلامي فكان يناصر العرب بكل قوته .. وبقيت سياسة مصر الرسمية سياسة عطف على العرب لا اكثر لان اشتغال مصر بمشكلاتها جعل سعد باشا وجعل غيره من الساسة يرون الا تشتت الجهود ، بل توجه كلها الى تحقيق استقلال مصر " (١٤. (

ان هذا الموقف الشعبي الذي تجلى بين حين وآخر رغم تلك الحرب العنيفة لطمس حقيقة عروبة مصر، كان تعبيرا عن هذه الحقيقة. ولا يقلل من قوة هذا التعبير التفسيرات التي تطرح للمواقف الشعبية بأنها كانت أحيانا تعبر عن الاخوة في الدين او التضامن في الوقوف ضد الاستعمار أو الترابط في اطار المشرق ، لان جميع هذه الابعاد تقع ضمن حقيقة انتماء مصر العربي . كذلك فان الموقف الرسمي المعادي مهما جرت محاولات تفسيره وتبريره بوجود ظروف فرضته ، فإنه- مع وعينا لهذه الظروف- كان تعبيرا عن عجز من وقفوه عن الامتداد ببصرهم خارج القوقعة التي وضعهم الاستعمار فيها.

ولقد قوى التعبير عن حقيقة عروبة مصر شعبيا في الثلاثينات بحكم عوامل عدة منها ظهور عجز القيادات وفشل سياستهم الاقليمية ، واحتدام الصراع ضد الاستعمار في اجزاء عربية مجاورة وخاصة فلسطين . وبقي الموقف الرسمي أسير العجز. ولقد شرح عبد الناصر في فلسفة الثورة مشاعر فتى عربي من شعب مصر في الثلاثينيات ازاء قضية عربية هي قضية فلسطين فقال:

"وأنا أذكر شيئا يتعلق بنفسي ان طلائع الوعي العربي بدأت تتسلل الى تفكيري وأنا طالب في المدرسة الثانوية أخرج مع زملائي في اضراب عام في الثاني من نوفمبر كل سنة احتجاجا على وعد بلفور الذي منحته بريطانيا لليهود ، ومنحتهم به وطنا قوميا في فلسطين اغتصبته ظلما من اصحابه الشرعيين.

وحين كنت اسائل نفسي في ذلك الوقت :لماذا اخرج في حماسة ولماذا اغضب لهذه الارض التي لم أرها؟ لم اكن أجد في نفسي سوى أصداء العاطفة " (١٥.(

والحق أن الشعور الشعبي بهذا الانتماء العربي في مصر كان وقتذاك شعورا عاطفيا يعبر عن نفسه بصور الارتباط الروحي او الجنسي أو الشرقي وجميعها نابعة من الارتباط القومي أو متصلة به- كما كان هذا الشعور يعاني من ضباب الاقليمية الكثيف الذي اصطنعه تكاتف الاستعمار والرجعية الحاكمة.

وقد تفجر هذا الشعور العاطفي خلال حرب فلسطين عام ١٩٤٨وانتقل عند بعض الطلائع الواعية الى منطقة الوعي العقلي بفعل الدراسة وتأثير الظروف المحيطة. وكان عبد الناصر واحدا من هذه الطلائع. وقد شرح لنا تطور شعوره في تلك المرحلة منذ الثلاثينيات حتى حرب فلسطين ، فقال في فلسفة الثورة:

"ثم بدأ نوع من الفهم يخالج تفكيري حول هذا الموضوع ، لما أصبحت طالبا في الكلية الحربية أدرس تاريخ

حملات فلسطين خاصة : وأدرس بصفة عامة تاريخ المنطقة وظروفها التي جعلت منها في القرن الاخير فريسة سهلة تتخطفها أنياب مجموعة من الوحوش الجائعة."
"ولما بدأت أزمة فلسطين كنت مقتنعا في اعماقي بأن القتال في فلسطين ليس قتالا في ارض غريبة، وهو ليس انسياقا وراء عاطفة ، وانما هو واجب يحتمه الدفاع عن النفس " (١٦. (
وهكذا أخذ الشعور بانتماء مصر العربي مكانه الصحيح عند عبد الناصر وغيره من الطلائع ، فلم يعد انسياقا وراء عاطفة مبهمة، وانما استقر على أساس من الفهم والوعي والادراك لبعدي الزمان والمكان. ويضرب لنا عبد الناصر اكثر من مثل على هذه الحقيقة في فلسفة الثورة (الصفحات ٦٣- ٦٩) منها اتصال الضباط الاحرار بالحاج امين الحسيني لمساعدة المقاومة في فلسطين وشعور عبد الناصر حين رأى طفلة صغيرة كانت في مثل عمر ابنته اثناء حصار الفالوجة وقوله لنفسه : " قد يحدث هذا لابنتي " ، وملاحظته بعد انتهاء المعارك وعودته الى الوطن وحدة المنطقة ككل.
"كانت المنطقة كلها في تصوري قد اصبحت كلا واحداً وأيدت الحوادث التي جرت بعد ذلك هذا الاعتقاد في نفسي . كنت أتابع تطورات الموقف فيها فأجده أصداء يتجاوب بعضها مع بعض " ،
"كان الحادث يقع في القاهرة فيقع مثيل له في دمشق غدا. وفي بيروت ، وفي عمان ، وفي بغداد، وغيرها " .
"منطقة واحدة ونفس الظروف ، ونفس العوامل بل نفس القوى المتألبة عليها جميعا " (١٧. (
وشرح عبد الناصر هذا التطور الذي حدث من خلال تجربته الذاتية، في رده على سؤال الصحفي البريطاني " ديزموند ستيوارت " عن الوقت الذي بدأ فيه يشعر بالعروبة... ويهمنا ان نورد هذا الشرح لأنه يقدم لنا أنموذجا لشاب عربي مصري في تلك الفترة لا بد أنه يمثل قطاعا من الشباب ، فضلا عن أنه يسلط الضوء على قضية سنعرض لها فيما بعد وهي " متى حدث توجه عبد الناصر العربي " ؟ فعبد الناصر يجيب سائله قائلا :
"بدأت طلائع الوعي العربي تتسلل الى تفكيري وأنا طالب في المدرسة الثانوية، عندما كانت مشاعري واحساساتي تتفاعل مع كل ما يدور في الوطن العربي من أحداث وكان أهم الأحداث التي ملكت على تفكيري في ذلك الوقت هي ثورة العرب في فلسطين ثم الفظائع الوحشية التي كان يرتكبها الفرنسيون في سوريا. ولقد تبلورت في ذهني فكرة القومية العربية كمذهب سياسي عندما كنا ندرس في كلية أركان الحرب المشكلات الاستراتيجية الخاصة بمنطقة الشرق الاوسط . وكنت قد قرأت تاريخ العرب منذ أقدم العصور وعرفت أنه عندما كان العرب وحدة متماسكة استطاعوا رد المعتدين على أعقابهم وكانت هذه الحقيقة ماثلة أمام عيني طوال فترة المناقشة التي كانت تدور حول وسائل الدفاع عن مصر" (١٨.(
قلنا أن الشعور العاطفي بالانتماء العربي في مصر تفجر خلال حرب فلسطين عام ١٩٤٨ ، ودخول مصر وعدد من الدول العربية هذه الحرب . وقلنا- أن هذا الشعور انتقل عند بعض الطلائع الى منطقة الوعي العقلي في تلك الفترة- فكان لقضية فلسطين دور في لفت الأنظار الى حقيقة عروبة مصر . ولكن لم تلبث حرب فلسطين نفسها بما أوصلت اليه من نكبة مريرة أن كانت سببا في دفع الرجعية الحاكمة في مصر الى سياسة العزلة سترا للهزيمة التي شاركت في صنعها . وهكذا عمد حكام مصر وقتذاك الى الانحاء باللائمة على العرب في خسران الحرب ، وساهموا في اصطناع حملات الكراهية ضد العرب وشعب فلسطين العربي على وجه الخصوص واطلقوا مع مثقفي البرجوازية النامية الذين يساندوهم الصيحات الاقليمية. فضرب ذلك كله المشاعر الجماهيرية في الصميم . ونجد أمثلة لما فعلوه في كتاب " حقائق قضية فلسطين " الذي أصدرته الهيئة العربية العليا ونشرته قبل ذلك فصولا في جريدة المصري للرد على تلك الحملات.
وارتفعت أصوات في مصر تعلن هذا الاتجاه الاقليمي الانعزالي وتتمادى فيه . وتزعّم صدقي باشا هذا الاتجاه ، فكرر ما سبق أن ردده من وجوب تجاهل القضية الفلسطينية . وكان قد نشر مقالا في أخبار اليوم يوم ١٥ مايو ١٩٤٨ تعبر فيه عن رأيه هذا . ونشر في ٢٦ مايو مقالا في الأهرام اعترض فيه على تعزيز تسليح الجيش . وجدد دعوته الى الابتعاد عن قضية فلسطين في حديثه لمجلة المصور يوم ١٥ يوليو ١٩٤٩ منطلقا من انكار الخطر الصهيوني . ويهمنا أن نورد قوله في هذا المجال لما له من دلالات نحن بحاجة الى استحضارها في هذه الايام التي يتجه فيها البعض هذه الوجهة الضالة. فقد سأل محرر المصور " ألا زلتم ترون انه لاخطر على مصر من الصهيونية؟ ". فأجاب صدقي باشا : " نعم لانه لا يعقل ان اسرائيل وتعدادها لا يزيد عن مليون يهودي من أجناس مختلفة تستطيع أن تجند جيشا وتحارب به مصر، وهي أكثر منها عددا وأكبر ثروة بنسبة لا تقبل المقارنة. هذا فضلا عن ان للدول الكبرى وبخاصة بريطانيا مصالح مرتبطة بمصالح مصر. وهي لذلك لن تسمح مهما تبدلت الأحوال بهذا الاعتراض ". وقد وصل صدقي باشا الى المطالبة علنا باجراء صلح رسمي مع اسرائيل أوائل عام١! ٩٥٢.
وكان من بين هذه الاصوات صوت أحمد لطفي السيد الذي تحدث للمصور في عدد ٥ مايو ١٩٥٠ أي بعد قرابة أربعين سنة من مقالته الليبية وبعد حوالي خمس وعشرين سنة من مشاركته في احتفالات افتتاح الجامعة العربية بالقدس- فتعرض لعلاقة مصر بالعرب وذكر انه طالما ردد مصرية المصريين وقال : " نحن

المصريين يجب أن نتمسك بمصريتنا ولا ننتسب الى وطن غير مصر ، مهما كانت أصولنا حجازية أو سورية أو شركسية أو غيرها... " . ويجدر بالذكر ان لطفي السيد- كما يقول البعض- من أصل فلسطيني . وننبه ايضا الى اننا حين نشير الى موقفه هذا ونختلف معه فيه لا ننسى أنه كانت للرجل مواقف كثيرة مشرفة استحق التقدير عليها وخاصة في مجال التعليم ، مثلما كانت للزعيم سعد مواقفه المشرفة والبطولية في مواجهة الاستعمار.

كما نشرت مجلة المصور مقالا للدكتور حسين مؤنس في عدد ٤ يناير ١٩٥٠ بعنوان " وحدنا " انتقد فيها اندفاع شعب مصر نحو مساندة أشقائه العرب، وطالب بالابتعاد عن قضايا العرب " واتباع الطريق الذي فيه مصلحتنا فقط حتى لا نثير الدول الكبرى علينا " (١٩.(

والحق ان هذه الأصوات الاقليمية وجدت دوما في مصر ومن بين عرب مصر من يرد عليها ويدحضها ويسفه منطقها. وهذا يؤكد ان حقيقة عروبة مصر بقيت رغم كل المحاولات قائمة . ولسنا هنا في مجال عرض الردود التي عبرت عن هذه الحقيقة . ولكن الملاحظ في تلك الفترة ان حكام مصر آنذاك تبنوا هذا الاتجاه الاقليمي الانعزالي وشجعوا عليه في غالب الأحيان . وكان تحولهم عنه في أحيان قليلة الى الانفتاح العربي مسألة مناورات تكتيكية تحتمها مصالحهم ولاتدل على واقع الشعب أو اتجاهه.

هكذا كانت حقيقة انتماء مصرالعربي -حقيقة عروبة مصر- حقيقة قائمة على مر العهود، حتى في النصف الاول من هذا القرن حين تألب عليها تحالف الاستعمار والرجعية الحاكمة . ولكنها بفعل هذا التألب حجبت خلال تلك الفترة بغشاوة وجرت محاولة مسخها وانكارها . فكانت بحاجة الى أن تتأكد وتنطلق وتأخذ مداها.

***

حدث التحول الجذري في موقف السلطة في مصر من حقيقة انتماء مصر العربي حين فجر عبد الناصر الثورة العربية النواة يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وتولى زمام السلطة في مصر.

فلقد عمل عبد الناصر بايمان عميق وبوعي كامل وبصبر لا يعرف الكلل والملل لتأكيد هذه الحقيقة وشرح أبعادها وتبديد الضباب الكثيف الذي يغشاها. وكان هذا دأبه منذ يوم توليه حتى يوم وفاته. وكان ايمان عبد الناصر بهذه الحقيقة قد استقر وتعمق في الاربعينيات كما رأينا من خلال تجربته الذاتية التي استشهدنا بها. وقد انتقل هذا الايمان يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢ من موقع ايمان فرد وطلائع تعبر في ايمانها عن ضمير الجماهير وتجابه سلطة تناهض هذا الإيمان ، الى موقع ايمان قائد الثورة وطلائع ثوار تعبر عن ايمانها عن ضمير الجماهير وتحتل موقع السلطة وتسخرها لخدمة هذا الايمان.

بدأ عبد الناصر تاكيد حقيقة انتماء مصر العربي ، وابراز عروبة مصر: منذ الأيام الأولى للثورة، وقد حرص أن يبشر بالفكرة ويشرحها لينقل الايمان الجماهيري بها من العاطفية الى الوعي العقلي . وهكذا نجده في فلسفة الثورة الذي كتبه أوائل عهده والذي طالعناه بأفكار القائد الشاب ، نجده وهو يشرح بعد المكان يركز على الدائرة العربية أول الدوائر الثلاث وأهمها- حتى أن حديثه عنها يستغرق حوالي ربع الكتاب ويؤكد عبد الناصر في حديثه انتماء مصر العربي فيقول :

"أيمكن أن نتجاهل ان هناك دائرة عربية تحيط بنا ... وان هذه الدائرة منا ونحن منها ، امتزج تاريخنا بتاريخها وارتبطت مصالحنا بمصالحها حقيقة وفعلا وليس مجرد كلام . أن الدائرة العربية هي أهم هذه الدوائر وأوثقها ارتباطا بنا فلقد امتزجت معنا بالتاريخ... وامتزجت معنا بالدين ثم جمعها الجوار في اطار ربطته كل ا لعوامل التاريخية والمادية والروحية."

ولا يقف عبد الناصر عند تأكيد حقيقة انتماء مصر العربي، بل يعلن أن القاهرة هي قلب العروبة، وأن مصر جزء لا يتجزأ من الوطن العربي . وهكذا تنشىء " مصر الثورة " اذاعة صوت العرب التي قدر لها أن تقوم خلال السنوات التالية بدور كبير في تأكيد حقيقة عروبة مصر وابراز وجه مصر العربي ودعم النضال العربي القومي عامة... وينطلق صوت العرب يوم ٤ يوليو ١٩٥٣ ويقول عبد الناصر في افتتاحه:

"أطلقت مصر صوت العرب من قلب القاهرة حربا على المستعمرين وشوكا يدمي ظهور الغادرين. أطلقته مصر يعلن ذاتيتكم وقوتكم أمة واحدة ، لا تفصلها الحدود، ولا تمزقها الشهوات، ولا يقف بينها وبين الحرية . تآمر الاستعمار."

ويحدد عبد الناصر دور مصر العربية في المنطقة المحيطة بها، فيحدث في فلسفة الثورة عن هذا الدور تجاه الدوائر الثلاث التي أهمها- كما سبق أن أوضحنا -الدائرة العربية.

..."ولست أدري لما يخيل الي دائما أن في هذه المنطقة التي نعيش فيها دورا هائما على وجهه يبحث عن البطل الذي يقوم به ، ثم لست أدري لماذا يخيل الي ان هذا الدور الذي أرهقه التجوال في المنطقة الواسعة الممتدة في كل مكان حولنا، قد استقر به المطاف متعبا منهوك القوى على حدود بلادنا يشير ألينا أن نتحرك ، وأن ننهض بالدور ونرتدي ملابسه فان أحدا غيرنا لا يستطيع القيام به .

وأبادر هنا فأقول ان الدور ليس دور زعامة انما هو دور تفاعل وتجاوب مع كل هذه العوامل ، يكون من شأنة تفجير الطاقة الهائلة الكامنة في كل اتجاه من الاتجاهات المحيطة بها، ويكون من شأنه. تجربة لخلق قوة كبيرة في هذه المنطقة ترفع من شأن نفسها وتقوم بدور ايجابي في بناء مستقبل البشر."

ويلقي عبدالناصر بعد تحديد دور مصر العربية في المنطقة على حكومة الثورة الي فجرها مسئولية تحقيق ما بتطلبه انتماء مصر العربي من التحام بين الشعوب العربية ودوما نراه يؤكد مع حقيقة عروبة مصر حقيقة وجود أمة عربية واحدة . و هكذا نجد عبد الناصر يقول في العيد الثاني للثورة:

"ان هدف حكومة الثورة ان يكون العرب أمة متحدة يتعاون أبناؤها في الخير المشترك . وهي تؤمن بأن الموقع الذي يحتله العرب بين قارات العالم، وخدماتهم العظيمة للحضارة ومواردهم الاقتصادية القيمة واتصالاتهم بالمشرق الاسلامي وبالشرق كله يرشحهم لمكانة كبيرة تتيح لهم التأثير على شئون العالم... وتؤمن الثورة أيضا بأن مشاكل العرب هي مشاكل المصريين . واذا كانت مشكلة الاحتلال استنفذت الى الآن الجزء الأكبر من جهد المصريين فأنها لم تصرفهم أبدا عن المشاركة في كل جهد عربي يبذل من أجل تحرير العرب.

ولا شك أن المستقبل سيشهد صورا جديدة من تعاون المصريين والبلاد العربية. "

ولقد حدث تجاوب عظيم في الأوساط العربية لاتجاه الثورة العربي وكانت هذه الأوساط متعطشة لقيام مصر بدورها العربي . ومما رواه السيد أحمد الشقيري في ذكرياته انه بعد سماعه خطاب عبد الناصر في العيد الثاني للثورة ذهب ضمن وفد من العرب للاعراب لعبد الناصر " عن التقدير العظيم لهذا الكلام الواضح الصريح الذي خلع في دقيقة واحدة القناع عن الثورة المصرية، وأبان وجهها العربي الأصيل ". " ووصف الشقيري اللقاء والمشاعر العربية التي سادت فيه، وأثبت المذكرة التي قدمها عن الوحدة ثم ذكر أن عبد الناصر سأله في لقاء تال ما اذا كان قرأ فلسفة الثورة وأكد له نحن عرب أولا وأخيرا وأشار الى دولاب فيه آلاف الرسائل والبرقيات من كل أنحاء الوطن العربي، جميعها تطالب بالوحدة (٢٠).

كان عبد الناصر يتفاعل مع هذا التجاوب الجماهيري ، فيزداد انطلاقا في تأكيد حقيقة عروبة مصر على المستويين الشعبي والرسمي . نراه يخاطب وفدا من عرب لبنان في ٢ فبراير ١٩٥٥ فينطلق في شرح حقيقة الوحدة العربية والدعوة لها .

... "ويجب أن نسير الى الأمام بقوة نحمل مشعل القوة من أجل العرب ومن أجل أهداف العروبة ، حتى نتخلص جميعا من الآلام فان آلام مصر من آلام لبنان ، وآلام لبنان من آلام سوريا... ان هذه الآلام نشترك فيها جميعا "

ونراه يشرح للعرب حقيقة عروبة مصر ويرد على الدعايات المغرضة التي تحاول طمس هذه الحقيقة فيقول لوفد من شباب عربي سوري في ٢٦ فبراير ١٩٥٥:

"ان هناك دعايات مغرضة تقول انه لا توجد في مصر روح عربية ولكنها خاطئة وبعيدة عن الحقيقة. ولعلكم لمستم بأنفسكم والدليل على ذلك وأنا شاب كانت تنعكس روحي تجاه العرب وليس تجاه اوروبا بالمرة."

ونراه في الوقت نفسه يشرح لعرب مصر أبعاد انتماء مصر العربي بما يعمق ايمانهم بهذه الحقيقة ، وقد حفلت خطبه منذ عيد الثورة الثاني بهذا الشرح.

هذا على المستوى الشعبي ، أما على المستوى الرسمي فتتالي تصريحات عبد الناصر معبرة عن عروبة مصر ومحددة دورها في المنطقة، وخاصة خلال معركة الأحلاف التي خاضها الشعب العربي منذ عام ١٩٥٤ ونشير الى تصريحاته في ٢ فبراير وفي ٢٤ مارس وفي ٣١ مارس من عام ١٩٥٥ (٢١). فجميعها تتضمن هذه المعاني.

ويحقق عبد الناصر نقلة كبيرة في تأكيد حقيقة عروبة مصر على المستوى الرسمي، حين يعلن الدستور المصري الجديد في ١٦ يناير ١٩٥٦، وينص في مقدمته:

"نحن الشعب المصري الذي يشعر بوجوده متفاعلا في الكيان العربي الكبير يقدر مسئولياته والتزماته حيال النضال العربي المشترك لعزة الأمة العربية ومجدها . "

وتنص مادته الأولى على أن:

"مصر دولة عربية ذات سيادة ، وهي جمهورية ديموقراطية... والشعب المصري جزء من الأمة العربيةآ ... ".

ثم لا يمضي سوى عامان على هذا الاعلان حتى يجسد عبد الناصر هذا الانتماء بخطوة عملية ضخمة هي تحقيق وحدة مصر وسوريا في فبراير ١٩٥٨. ويتابع السير في سياسة عربية ثورية ويقود حركة المد العربي الثوري.

ولم يقتصر تاكيد عبد الناصر حقيقة عروبة مصر أبان المد العربي الثوري بل بدأ وبشكل أقوى خلال النكسات وما مثلته من جزر. فلم يتزحزح عبد الناصر عن هذا التأكيد في أشد الظروف صعوبة... في خضم النكسات وبعد أعنف الضربات التي وجهها التحالف الاستعماري الصهيوني الرجعي للثورة العربية، وما صاحب ذلك من الام ومرارات.

فأثر نكسة الانفصال يوم ٢٨ سبتمبر ١٩٦١ حرص عبد الناصر أن يوجه بيانا للأمة العربية جمعاء باعتبارها كلا واحدا، أكد فيه ايمانه بحقيقة انتماء مصر العربي وحتمية الوحدة العربية:

..."واني لأثق في حتمية الوحدة بين شعوب الأمة العربية ثقتي بطلوع الفجر بعد الليل مهما طال . "

ووقف عبد الناصر يجابه أشد حملات الحرب النفسية التي ا ستهدفت تشكيك شعب مصر العربي بانتمائه أثر نكسة الانفصال وتشكيك الشعب العربي عامة باتجاه شعب مصر العربي . ووقف عبد الناصر يجابه الاتجاهات الأقليمية والانفصالية بايمان لا يتزعزع وبعلمه وبأسلوبه الفذ في مخاطبة الجماهير . ونورد مثلا من أمثلة كثيرة ما جاء في خطابه في عيد الوحدة يوم ٢٢ فبراير ١٩٦٢ بعد الانفصال بعدة شهور.

"هناك أيها الاخوة من يتساءل- لماذا نحتفل بعيد الوحدة وقد رأينا ما حدث لها في سوريا . سمعت هذا التساؤل وسمعت من يقول لنترك العرب في حالهم ولنذهب في حالنا ، وربما كان هذا التساؤل حافزا من الحوافز التي دفعتني على الاصرار لأن أكون معكم ولأن أتحدث اليكم.

وأنا أعلم- ايها الاخوة- ان الشعب في الجمهورية العربية المتحدة تأثر عاطفيا من بعض التصرفات التي وجهت ضده من بعض الحكام العرب . لكن علينا أن ندرك عروبتنا وعروبة مصر ليست مسألة ظروف متغيرة ، وانما عروبتنا حقيقة ثابتة. وأنا قلت لكم هذا الكلام في يوم الانفصال واكرره أيضا مرة أخرى بعد مرور ما يقرب من خمسة أشهر على مـؤامرة الانقلاب في سوريا.

لا خيار لنا- أيها الاخوة - في أن نكون عربا... ستبقى عروبة مصرلأن تلك هي الطبيعة نفسها وليست ارادة فرد أو أفراد.

كذلك- أيها الأخوة -علينا أن ندرك أن الوحدة ستظل هدفا. ان وحدة الأمة العربية أيضا طبيعية كطبيعة وجودنا ذاته."

وحين أنجز عبد الناصر بعد شهور قليلة إنجازه الضخم على الصعيد الفكري وطرح الميثاق الوطني يوم ٢١ مايو ١٩٦٢ ، تضمن الميثاق تأكيد حقيقة انتماء مصر العربي وأدان عجز القيادات التي وقعت أسيرة الاقليمية. وتجاوز ذلك الى تحميل مصر " رسالة العمل من أجل الوحدة الشاملة... " وهي نقلة كبيرة في مدى عقدين من السنين.

ونلاحظ أن عبد الناصر جابه حملات الحرب النفسية التي شنها مدبرو الانفصال على الأمة العربية ، باجراءات عملية جسدت معنى عروبة مصر وحقيقة الوحدة العربية. ولم ينسق الى أي رد فعل غاضب يحمل معنى اقليميا لمواجهة تحديات الانفصاليين . بل كانت اجراءاته تمثل الاستجابة الصحيحة لتلك التحديات خاصة على مستوى التعامل مع سوريا الشعب والدولة.

وازداد تأكيد الثورة العربية التي يقودها عبد الناصر لحقيقة عروبة مصر قولا وعملا مع اشتداد حرب العدو لهذه الحقيقة. لأن عروبة مصر هي الطبيعة نفسها ، ولأن وحدة الامة العربية ايضا طبيعية، ولأن رسالة مصر في العمل من أجل الوحدة العربية هي الرسالة الطبيعية. ولقد كان ذلك ما أكده عبد الناصر يوم ٢٢ يوليو ١٩٦٣ أثر احداث أليمة وقعت في سوريا.

"لم نكفر ولن نكفر بالقومية العربية ولا بالوحدة العربية وسنعمل دائما من اجل القومية العربية والوحدة العربية ، وكل واحد فينا يسلم العلم للثاني.

المسألة ليست شخصية.. وليست خاصة بعبد الناصر ولا بفلان او علان .. الرسالة خاصة بالشعب بكم انتم ، بكل واحد من ابناء هذه الامة لان هذه الرسالة هي الرسالة الطبيعية. "

وهكذا كانت النكسات بمثابة الامتحان الذي محّص وسبر الغور فأثبت بما لا يقبل ادنى شك عظم عطاء عبد الناصر في مجال تأكيد حقيقة عروبة مصر.

ولقد توج عبد الناصر جهده في هذا المجال بعد نكسة يونيو (حزيران) ١٩٦٧ بسياسته الواضحة المحددة التي حددت مسئولية مصر العربية ، واعتبرت قضية فلسطين قضية عربية قومية، وسعت لتحرير جميع الأراضي العربية المحتلة... الجولان والضفة الغربية لآ وقطاع غزة والقدس قبل سيناء- على حد تعبير عبد الناصر في أكثر من خطاب- مع الحفاظ على أصل القضية وعلى حقوق شعب فلسطين.

وأوجز عبد الناصر التعبير عن مجمل جهده في سطرين من بيان ٣٠ مارس عام ١٩٦٨ حيث اقترح :

"أن ينص الدستور على تحقيق وتأكيد الانتماء الى الأمة العربية تاريخيا ونضاليا ومصيريا ، وحدة عضوية: فوق أي فرد، وبعد اي مرحلة."

من هذا العرض لجهد عبد الناصر قائد ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ في مجال تأكيد حقيقة عروبة مصر، يمكننا أن نلاحظ ثلاث ملاحظات هامة عليه.

أولا- أن توجه مصر العربي اصبح في ظل السلطة الثورية سياسة اصيلة لا تخضع للمناورات التكتيكية- كما كان الامر قبل الثورة- كما أصبحت تعبيرا عن ارادة الشعب وتأكيدا لحقيقة انتمائه . وهكذا أصبحت عروبة مصر في هذه السياسة هي بحق الطبيعة نفسها وكما اوضح عبدالناصر في خطابه في العيد الثالث عشر للثورة.

"عروبة مصر ليست مسألة سياسية، ولامسألة تكتيكية وانما عروبة مصر قدر ووجود وحياة . لا بد أن احنا نعرفه ونحطه في نفسنا. "

ثانيا- ان توجه مصر العربي كسياسة أصيلة لا يرتبط بفرد ولا يقف عند مرحلة. تماما كما ان عروبة مصر حقيقية ثابتة " فوق أي فرد وبعد أي مرحلة " ولقد حرص عبدالناصر دوما على تثبيت هذا المعنى

وترسيخه. وحرص على التقليل من شأنه هو كفرد في رسم هذا التوجه، وهو أمر مفهوم منه ومحل تقدير عظيم . فهو يقول - كما ذكرنا: -
"المسألة ليست شخصية ... وليست خاصة بعبد الناصر أو بفلان أو علان .. الرسالة خاصة بكم أنتم بالشعب.. لان هذه الرسالة هي الرسالة الطبيعية .."
وهو يقول في مناسبة أخرى في فبراير.1967
.."عبد الناصر في هذا ليس الا ظاهرة بتأخذ وقتها وبتنتهي لكن الحقيقة اللي يبقى في هذا هو المبادىء اللي بنؤمن بها في كل بلد وفي كل مكان.
العملية ما هياش أبدا عملية شخصية ولاعملية متعلقة بي أنا.. ولكن ده عمل الامة العربية."
والحق أن هذا المعنى الذي حرص عبد الناصر على تثبيته وترسيخه معنى سليم ويتفق مع النظرة التاريخية للثورة العربية، وان كان البحث التاريخي يرى للفرد وللمرحلة تأثيرهما فيه . ومن هذه الرؤية يكون التقليل من شأن عبد الناصر كفرد ومن شأن فترته كمرحلة غير وارد الا منه هو . لأن التاريخ يسجل أن دور عبد الناصر القائد والبطل كان كبيرا وان عهده كان خصبا مفعما بتدفق الفكر القومي وبالحركة النضالية العربية.
ثالثا- أن توجه مصر العربي كسياسة اصيلة لا ترتبط بفرد ولا تقف عند مرحلة قامت على أسس علمية راسخة نبعت من الرؤية العلمية الثاقبة لماضي مصر وحاضرها ومستقبلها. فلم يقف هذا التوجه عند حد التعبير الساذج عن الارتباط العاطفي أو المشاعر الوطنية " الشوفينية " وانما تجاوز ذلك وأصلّه للتعبير عن الارتباط العقلي والمادي والروحي بما يعينه ذلك كله من الارتباط المصيري.
وعلى هذا الاساس انطلق هذا التوجه من وعي عميق لمكان مصر في المنطقة ودورها فيها ، ليعمل على بناء القاعدة الصلبة وليحقق تشييد القلعة الحصينة في المنطقة.

عبد الناصر والثورة العربية ٣ - أحمد صدقي الدجاني بناء القاعدة

"ان علينا أن نبني القاعدة .. قاعدة للتحرر العربي ، قاعدة للمستقبل العربي ، قاعدة للديموقراطية السليمة ، قاعدة للاشتراكية العربية ، قاعدة للعدالة الاجتماعية العربية . "
جمال عبد الناصر
اقترن حرص عبد الناصر على تأكيد حقيقة عروبة مصر بالعمل الدائب من أجل بناء مصر لتكون قاعدة النضال العربي الصلبة وقلعة الثورة العربية الحصينة . وانطلق عبد الناصر في عمله هذا من وعي عميق لموقع مصر في المنطقة ولمكانتها ودورها فيها.
وهكذا اعطى عبدالناصر لمصر اهتماما خاصا ، وبذل لها جهدا كبيرا، تعبيرا عن هذا الوعي العميق لمكانها ودورها، ولانه ايضا تحمل بالثورة مسؤولية السلطة فيها فأصبح مطلق الارادة في العمل الثوري يقف وجها لوجه امام التجربة والممارسة العملية.
والحق أن عبد الناصر شغل منذ الأيام الاولى لثورة ٢٣ يوليو بالتفكير في بعد المكان بالنسبة لمصر، وخصص في فلسفة الثورة الجزء الثالث والأخير للحديث عن عنصر المكان . لأن المكان " يفرض علينا حقيقته ." ووصل عبد الناصر في تفكيره الى ان العزلة مستحيلة في عالم اليوم ، وحدد مكان مصر على الخارطة بأنه مركز دائرة عربية وفي قارة افريقيا وفي عالم اسلامي ليتحدد تبعا لذلك الدور، " وان القدر لا يهزل."
"فليس عبثا ان بلدنا في جنوب غربي آسيا يلاصق الدول العربية (في المشرق) وتشتبك حياته بحياتها.
"وليس عبثا ان بلدنا يقع في شمال شرق افريقيا، ويطل من على القارة السوداء التي يدور فيها اليوم اعنف صراع بين مستعمريها البيض واهلها السود من اجل مواردها التي لاتحد.
"وليس عبثا ان الحضارة الاسلامية والتراث الاسلامي الذي أغار عليه المغول الذين اكتسحوا عواصم الاسلام القديمة تراجع الى مصر وآوى اليها فحمته مصر وأنقذته عندما ردت غزو المغول على اعقابه في عين جالوت. "
وهكذا وصل عبدالناصر الى تصور الدور الهائم في هذه المنطقة الباحث عن البطل الذي يقوم به، تماما كما في مسرحية بيراندللو " ست شخصيات تبحث عن مؤلف " ووصل الى أن هذا الدور استقر على حدود مصر.
"يشير الينا ان نتحرك. وان ننهض بالدور ونرتدي ملابسه فإن احد غيرنا لا يستطيع القيام به. "
وبيّن عبد الناصر طبيعة هذا الدور.
"وابادر هنا فأقول ان الدور ليس دور زعامة انما دور تفاعل وتجاوب مع كل هذه العوامل ، بل يكون من شأنه تفجير الطاقة الهائلة الكافية في كل اتجاه من الاتجاهات المحيطة فيها ، ويكون من شأنه تجربة لخلق قوة كبيرة ترفع من شأن نفسها وتقوم بدور ايجابى في بناء مستقبل البشر ."
وأنطلق عبدالناصر من هذا الفهم ومن هذا الوعي لمكان مصر ودورها للعمل في بناء القاعدة على ارضها.

وقبل ان نستعرض الخطوات والأعمال التي قام بها في هذا المجال ، نستشعر ضرورة تسليط مزيد من الضوء على مصر " المكان والدور " والحديث هنا متصل اتصالا وثيقا بالجغرافية السياسية. وقد تناوله جمال حمدان في كتابه القيم " شخصية مصر " فأبان وأوضح ، كما تناوله باحثون آخرون. وسنقتصر هنا من هذه الدراسات المستفيضة على ما يقتضيه بحثنا.

فبالنسبة للمكان ... هناك موقع مصر الجغرافي يأتي ليمنحها المزيد من التفرد على الاجزاء العربية الاخرى كما يلاحظ حمدان " وابرز ما في هذا الموقع انه كالقلب من الجسم ، واسطة العقد، وهمزة الوصل بين آسيا العربية وافريقيا العربية. واذا كان المتفق عليه ان مصر جزء من المشرق العربي وان كان البعض رآها تجمع ما بين المشرق والمغرب، فانها هي التي " قدمت " المغرب العربي الى المشرق تاريخيا وجغرافيا .. ونحن اذا نظرنا إلى هيكل النمط العمراني الفعلي في الوطن العربي، فسنجد مصر فيه كالعقدة البشرية ، فعندها وحدها تلتحم ذراعا العروبة في افريقيا - المغرب وا لسودان- بالحلقة السعيدة التي تطوق المشرق ا لعربي " و ننظر في موقع مصر في العروبة فنجد مع حمدان انه يتميز بصفة هامة.

"فمصر من الدول العربية القليلة التي لا حدود لها مع غير العرب.

فهذا العمق الجغرافي لم يمنحها الأمن والسلامة الاستراتيجية فحسب بل جعلها طوال التاريخ تتعامل وتتفاعل مع عرب وعروبة، بعكس اطراف العالم العربي نفسه حيث تعرضت للمؤثرات الاجنبية المتاخمة فثمة مؤثرات التهنيد في كل الجنوب العربي، ومؤثرات التعجيم في الخليج العربي ، والتتريك في تخوم سوريا ، وثمة كانت اخطار الصبغة الاسبانية في هوامش المغرب ، وبالمثل المؤثرات الزنجية في السودان.

ولكن من كل هذا ومثله نجت مصر بحكم أنها دائما جزيرة عربية يحيط بها العرب من كل الجهات ومن هنا وسواء عد التاريخ عاملا من عوامل الترشيح اومن عوامل التكثيف، فان مصر تزداد عروبة وعروبتها تزداد عمقا وكثافة ..

وعدا هذا، فمن نفس هذه الحقيقة تنبع حقيقة اخرى لا تقل خطرا ودلالة... فمصر وحدها تقريبا هي التي امتصت وتمثلت واستوعبت عناصر وعينات من كل الشعوب العربية او معظمها.. "

"وهناك أيضا الموضع .. وما تتميز به مصر وتنفرد في الوطن العربي موضعا .

فأول ما تنفرد به مصر الضخامة، ضخامة الحجم التي تجعل منها حجرا شامخا ، وهي حقيقة ادركها وأحس بل دائما جيرانها طوال التاريخ قديما وحديثا . فمصر وحدها اليوم ثلث العرب أو انقص منه قليلا... وهي بهذا تفوق أيا من المغرب العربي الكبير كله او آسيا العربية...

ولكن مصر لا تستمد ثقلها من الحجم الخام وحده ، بل ومن تجانسها الشديد . فهي ليست حجرا ضخماً فقط بل انها حجر وحيد الى ذلك كما قلنا ...فوحدتها الجنسية واللغوية مطلقة، واقليتها الدينية تعد محدودة . والكل يؤلف وحدة وطنية.

والنتيجة المنطقية لهذا كله ان مصر مركز الثقل الطاغي وقطب القوة في العالم العربي ينتشر ظلها وشبه الظل بل والصدى بعيدا في آفاقه... من هنا كانت مصر اكثر من عضو ضخم في الجسم العربي ، انها رأس، ورأس موح مؤثر، ثم هي جهاز عصبي مركزي فعال.

وهي في الحالة الاولى بمثابة جيروسكوب العالم العربي الذي يرسي سفينته في وجه العواصف الخارجية ويمنحه من وزنه ليمنع تميعه او ضياعه بين الضغوط والاغراءات . وهي في الثانية كبوصلة العالم العربي الذي تتحسس نبضه وترصد تيارات العالم ثم تحدد اتجاه القافلة " (٢٢.)

وبالنسبة للدور.. فبحكم المكان تحدد الدور في المنطقة .وكما يقول حمدان " بحكم هذا الموقع كانت مصر دائما ملتقى العرب ومجمع الأسرة ، وأحيانا ملجأ وملاذا وخط دفاع اخير عن التراث العربي.. وفي كل الحالات كانت تلعب دور المنار للاسلام - ودور المنبر للعروبة.. وتحتمت على مصر بانتظام مسؤولية الحماية والدفاع عن العروبة، ابتداء من الصليبيات والتتار حتى الاستعمار الاوروبي الحديث والاستعمار الصهيوني الأحدث . ومن حسن الطالع وتمام التوفيق ان نهضت مصر بتلك المسؤوليات وكانت عند حسن ظن العرب ، فحفظت عليها عروبتها واسلامها وكيانها ضد غزاة العصور الوسطى ، وردت لها اعتبارها ورفعت قامتها في وجه غزاة الامس القريب ، وهي الان تتأهب لاستئصال السرطان الصهيوني."

وهكذا كان دور مصر في الوطن العربي دور قيادة وريادة . ومع أن عبد الناصر حرص على تجنب كلمة زعامة في وصف الدور، تحسبا مما يثيره اللفظ من حساسيات وقطعا لطريق استغلال القوى المعادية له الا ان الباحثين يصلون من دراساتهم الى اثباته . . فهذا ساطع الحصري يقول في دور مصر " لقد زودت الطبيعة مصر بكل الصفات والمزايا التي تحتم عليها ان تقوم بواجب الزعامة والقيادة في انهاض القومية العربية لانها تقع في مركز البلاد العربية بين القسمين الافريقي والآسيوي منها. كما انها تكون اكبر كتلة من الكتل التي انقسم اليها العالم العربي بحكم السياسة والظروف... وكل ذلك من الموقع الجغرافي الى الكثرة والثروة العامة ومستوى الثقافة وتشكيلات الدولة .. مما يجعل مصر الزعيمة الطبيعية للقومية العربية " (23) .

وكان ساطع الحصري قد سجل هذا الرأي منذ عام ١٩٣٦ في مقال نشره . وكانت الكاتبة مي زيادة قد اثبتت

هذا الرأي في كتابها " بين الجزر والمد " الذي صدر سنة 1924 حين قالت " أصبحت مصر كعبة العالم العربي، وحاضرته المعنوية فما لاح فيها نور الا استضاءت به الاقطار الاخرى ، ولا مضت في ارجائها صيحة الا اهتزت لها القلوب .. ولئن كان هذا مما يبعث في مصر عاطفة الاغتباط والفخار ، فهو كذلك يلقي مسؤولية كبيرة. " ..

واذا كانت هذه الآراء عن دور مصر قد ظهرت قبل ثورة ٢٣ يوليو تعبيرا عن تأثير مكان مصر جغرافيا وتاريخيا وعلميا في الوطن العربي ، فانها تعززت وقويت بعد بروز القيادة العربية الواحدة في مصر ، وسلطت الضوء على مكان مصر ودورها .ولامجال هنا للاستشهاد التفصيلى ولكنا نكتفي بالاشارة الى بعض ما كتب عن دور مصر وزعامتها (٢٤).

ان زعامة مصر في المنطقة اذن حقيقة ثابتة. وجمال حمدان يحدد المقصود بهذه الزعامة " فهي لا تعني طبقية اقليمية داخل العروبة، وانما تعني اولوية بين اكفاء ، واسبقية لا رياسة في حلبة مفتوحة تظل تترك دار " العرب " مائدة مستديرة . " ا نها انما تعني دور قائد الاوركسترا ، تعني الشقيقة الكبرى اكثر منها حق وراثة الابن الأكبر.. وهذه الزعامة لا يمكن ان تكون تشريفا او تخليدا، بل هي تكليف وتقليد: تكليف من الجغرافيا وتقليد من التاريخ ... ان مصر لا يمكن الا ان تكون النواة النووية في الوحدة العربية (٢٥).

واضح ان هذا الحديث عن مكان مصر في المنطقة ودورها فيها انما ينطلق من منطلق قومي ينظر الى المنطقة ككل متكامل . ولذا فان هذا الحديث لا يتناقض بل ينسجم انسجاما كاملا مع حقيقة وحدة الوطن العربي لأن اجزاء الوطن العربي تشترك فيما بينها في كثير من السمات والخصائص . وقد فصل حمدان الحديث عن هذا الجانب في دراسته. ولكنها ضمن هذا الاشتراك تتمايز فيما بينها محققة نوعا من التكامل، فيتحدد من ثم لكل جزء دوره في اطار المجموع بحكم موقعه وموضعه وثقله.

وواضح من هذا الحديث عن دور مصر انه تحدد بحكم تفاعل عنصري المكان والزمان منذ القديم . أي انه قائم قبل ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وقبل تولي عبد الناصر السلطة في مصر، وسيبقى هذا الدور قائما بعد عبدالناصر ولقد كان سر عظمة عبدالناصر انه وعى بعمق حقيقة الدور فانطلق ليعبر عنه وعن المرحلة التاريخية التي تمر بالمنطقة. وذلك هو دور البطل في التاريخ . وستظل مسؤولية فهم حقائق المكان والدور ووعيهما بعمق في الوطن العربي واقعة على كاهل الطلائع العربية التي قادها عبد الناصر. وسيكون على هذه الطلائع ان تناضل بدأب لتمكين مصر من القيام بدورها، لان محاولات عزل مصر التي سيدأب الاعداء على القيام بها انما تستهدف النيل من مصر والوطن العربي في وقت واحد.

وعى عبد الناصر مكان ودور مصر في منطقة الوطن العربي، فانطلق أثر تفجير ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ يبني مصر لتكون القاعدة الصلبة والقلعة الحصينة . وكان عليه كي ينجز هذا العمل الكبير ان يبذل الكثير. فقد عانت مصر آنذاك من ادواء عدة تنخر في جسمها، وتعطل طاقاتها فتمنعها من القيام بدورها .وعانى شعب مصر العربي من الواقع الفاسد الذي أستشرى في مصر . ولقد اوجز الميثاق واقع الشعب آنذاك.

"لقد كان الغزاة الاجانب يحتلون على ارضه وبالقرب منه القواعد المدججة بالسلاح ترهب الوطن المصري وتحطم مقاومته.

"وكانت الاسرة المالكة الدخيلة تحكم بالمصلحة والهوى وتفرض المذلة والخنوع . وكان الاقطاع يملك حقوله ويحتكر لنفسه خيراتها ولا يترك لملايين الفلاحين العاملين عليها غير الهشيم الجاف المتخلف بعد الحصاد.

وكان رأس المال يمارس ألوانا من الاستغلال للثروة المصرية بعد ما استطاع السيطرة على الحكم وترويضه لخدمته.

ولقد ضاعف من خطورة المواجهة الثورية لهذه القوى المتحالفة مع بعضها وضد الشعب ، ان القيادات السياسية المنظمة لنضال الجماهير قد استسلمت واحدة بعد واحدة ، واجتذبتها الامتيازات الطبقية وامتصت منها كل قدرة على الصمود، بل واستعملتها بعد ذلك في خداع جماهير الشعب تحت وهم الديموقراطية المزيفة.

وحدث نفس الشيء مع الجيش الذي حاولت القوى المسيطرة على مصالح الشعب ان تضعفه من ناحية وان تصرفه من ناحية اخرى عن تأييد النضال الوطني بل وكادت ان تصل الى استخدامه في تهديد النضال وقمعه " .

والحق ان هذا الحديث الموجز يتضمن في طياته تفاصيل طويلة ترسم ملامح الصورة المؤلمة التي كان عليها الواقع الفاسد المستشري في مصر. ولا يتسع مجالنا هنا لشرح التفاصيل ونكتفي بالاشارة الى الدراسات التي عرضت لها (٢٦).

ولقد جابه عبد الناصر هذا الوقع الفاسد بالثورة ، وطرح في مواجهته المبادىء الستة التي اعلنتها الثورة في ايامها الاولى و " التي نحتتها ارادة الثورة من مطالب النضال الشعبي واحتياجاته ". وكما اوضح الميثاق:

"في مواجهة جيوش الاحتلال البريطاني الرابضة في منطقة قناة السويس كان المبدأ الاول هو : القضاء على الاستعمار واعوانه من الخونة المصريين.

في مواجهة تحكم الاقطاع الذي يستبد بالارض ومن عليها كان المبدأ الثاني هو : القضاء على الاقطاع.
في مواجهة تسخير موارد الثروة لخدمة مصالح مجموعة من الرأسماليين كان المبدأ الثالث هو : القضاء على الاحتكار وسيطرة رأس المال على الحكم.
في مواجهة الاستغلال والاستبداد الذي كان نتيجة محتمة لهذا كله، كان المبدأ الرابع هو: اقامة عدالة اجتماعية.
في مواجهة المؤامرات لاضعاف الجيش واستخدام ما تبقى من قوته لتهديد الجبهة الداخلية المتحفزة للثورة ، كان الهدف الخامس هو: اقامة جيش وطني قوي.
في مواجهة التزييف السياسي الذي حاول أن يطمس معالم الحقيقة الوطنية، كان الهدف السادس هو اقامة حياة ديموقراطية سليمة."
لم تكن هذه المبادىء الستة- كما هو واضح- نظرية عمل ثوري كاملة ، ولكنها كانت في تلك الظروف دليلا للعمل.. و يمكننا ان نلاحظ عليها ثلاث ملاحظات.
أولا: ان المبادىء الستة اختصت بقضايا داخلية وطنية ، ولم تتعرض لأية قضايا قومية أو دولية. فهي جميعها موجهة لبناء قاعدة الثورة في مصر وهي في هذا تعبير عن واقعية فرضت البدء بمصر باعتبارها الارض التي تفجرت عليها الثورة من جهة، ولأنها الارض المؤهلة لأن تكون القاعدة والقلعة.
ثانيا: إن المبادىء الستة عبرت عن التوجه للجمع بين الثورتين السياسية والأجتماعية. هذا التوجه الذي شرحه عبد الناصر في فلسفة الثورة حين تحدث عن الثورتين ، والعيش فيهما معا .
ثالثا: ان المبادىء الستة حملت في طياتها بذور التطور لبلورة اهداف الثورة والوصول " الى برنامج تفصيلي يفتح طريق الثورة الى اهدافها اللامتناهية " من خلال التجربة والممارسة وبالتفاعل الحي مع التاريخ القومي. فسرعان ما سيؤدي هذا التفاعل وخاصة بالنسبة للمبدأ الاول : مبدأ القضاء على الاستعمار الى رؤية قومية واضحة متبلورة تؤكد وحدة المصير العربي ومن ثم سيؤدي الى رؤية انسانية عالمية محددة.

القضاء على الاستعمار

وننظر فيما عملته ثورة ٢٣ يوليو من اجل بناء القاعدة في مصر..
فنجد منذ البداية ايضا نضالا دائبا لتحرير مصر من الوجود الاستعماري فيها يرتكز على تصميم لا يلين .. ولقد كان المبدأ الاول من مبادىء الثورة الست هو " القضاء على الاستعمار وأعوانه من الخونة المصريين " . وقد اعلنته الثورة في مواجهة جيوش الاحتلال البريطاني الرابضة في منطقة قناة السويس . وكانت مصر قد عانت من الاستعمار البريطاني المباشر معاناة شديدة منذ عام ١٨٨٢ وعلى مدى سبعين عاما . وقد جاء احتلال بريطانيا العسكري في ذلك العام ضمانا لمصالح الاحتكارات المالية الأجنبية التي نفذت الى مصر قبل ذلك وركزت نشاطها في استثمارين ضخمين هما زراعة القطن وحفر قناة السويس . وعاشت مصر خلال فترة الاستعمار البريطاني تجربة مروعة استنزفت فيها كل امكانات الثروة الوطنية لصالح القوى الاجنبية ، وبرزت خلالها أبشع أساليب التسلط الاستعماري . ولقد جابه الشعب العربي في مصر بكل قواه المستعمر المحتل فقام بالانتفاضة تلو الانتفاضة ، ولم تعرف روح الشعب الاستسلام وهكذا سجل تاريخ تلك الفترة في مقابل اعمال التسلط الاستعماري البريطانية أروع صور النضال الشعبي.
وحين قامت الثورة كانت مصر لا تزال تعاني من وجود ثمانين ألف جندي بريطاني مسلح على ضفتي قناة السويس يرهبون ارادتها . وكانت مقاومة الشعب قد تألقت مرة اخرى في منطقة القناة عام ١٩٥١ . وجاء عبد الناصر الى الحكم وقضية الشعب الاولى .. قضية الجلاء تستولي عليه ، فباشر العمل لها. وكان عبد الناصر قد اختزن في داخله كل كراهية الشعب للاستعمار وبلور في ضميره تطلع الشعب للتحرير ونلاحظ ذلك في جميع خطاباته واعماله . ففي أول خطاب له بعد الثورة حين تحدث الى شباب الجامعة في ذكرى شهداء الجامعة يوم ١٥ نوفمبر ١٩٥٢ أعلن هدف الثورة في القضاء على الاستعمار وشرح كيف رسخ هذا الهدف نفسه.
"لقد كان شباب الجامعة دائما في مقدمة الذين رفعوا علم النضال والكفاح ضد الظلم والاستعمار. و قد كنت طالبا بالمدارس الثانوية اجعل خطاي تسير مع خطى الجامعة ، فأصابتني في مثل هذا اليوم من سبعة عشر عاما اثناء اشتراكي في المظاهرات ضد الاحتلال ما اصاب الكثيرين من المكافحين في سبيل استقلال البلاد وتحريرها . وقد تركت اصابتي أثرا عزيزا لا يزال يعلو وجهي ، فيذكرني كل يوم بالواجب الوطني الملقى على كاهلي كفرد من أبناء هذا الوطن العزيز.
وفي هذا اليوم وقع صريع الظلم والاحتلال المرحوم محمد عبد المجيد مرسي فأنساني ما أنا مصاب به، ورسخ في نفسي ان علي واجبا افنى في سبيله أو اكون أحد العاملين على تحقيقه حتى يتحقق ، وهذا الواجب هو تحرير الوطن من الاستعمار وتحقيق سيادة الشعب.. "

وأكد عبد الناصر هذا الهدف في خطابه يوم ٢٣ ديسمبر ١٩٥٢ مواصلا اياه ومتتبعا جذور ثورة 23 يوليو منذ أن ثار شعب مصر العربي على الاحتلال البريطاني ، وهو المعنى الذي ورد في فلسفة الثورة ثم فصله الميثاق في حديثه عن جذور النضال المصري . وكم تتجلى كراهية عبد الناصر للاحتلال البريطاني في خطابه هذا الذي يقول فيه:

"قد يحدد الناس تاريخ الثورة المصرية التي قام بها الجيش ممثلا للشعب باليوم الثالث والعشرين من يوليو ١٩٥٢. والواقع ان هذا التاريخ مجافاة للواقع لانه لم يكن الا آخر مراحل الثورة . أما اولى مراحلها... فقبل سبعين عاما واثني عشر يوما قبله. ففي ١١ يوليو 1882 خرجت الاسكندرية الوادعة بمدافع العدوان البريطاني ، ثم كان الاحتلال البغيض ، واشتعلت مصر ثائرة .. ولكن الثورة لم تحقق أهدافها. وكان لا بد لها من أن تعبر حتى تنمو مع الأيام ، حتى اذا اصبحت مكتملة قادرة على ان تقوم بعمل ما لم تتردد في القيام به لقد حددت الثورة اهدافها منذ اليوم الاول لمولدها " لا بد من تحرير مصر ..لا بد من جلاء قوات الاحتلال ... ".

وبعد ان يستعرض عبدالناصر في خطابه هذا نضال الشعب عبر السنين السبعين ويشرح مختلف ابعاد ثورته يختم حديثه قائلا:

"وبهذا تؤمن الثورة انها تستطيع ان تحقق اهدافها تحرير مصر لمصر ولشعب مصر."

وتتالت تصريحات عبد الناصر مؤكدة على ضرورة جلاء القوات البريطانية عن منطقة القناة . وتتالت اعمال الثورة في الشهور الستة الاولى مهيئة الجو مع التصريحات لمباشرة الخطوات العملية بلوغا لهدف الجلاء . ففي ٣٠ يناير ١٩٥٣ اعلن عبد الناصر:

"ان الجلاء الكامل شرط لتحسين العلاقات مع بريطانيا . وان سياسة بريطانيا في الاعوام السبعة الاخيرة أثارت ريبة في نفوس المصريين."

وخاضت الثورة تجربة اولى في المفاوضات مع بريطانيا حول مستقبل السودان اظهرت فيها اتساع الافق . فتم في ١٢ فبراير ١٩٥٣ توقيع الاتفاق المصري البريطاني بشأن السودان ، والذي يضمن لشعب السودان حق تقرير مصيره . ولكن المفاوضات حول الجلاء كانت تبدو صعبة لأن بريطانيا كانت متمسكة بالتواجد العسكري في القناة وتتصرف بمنطق الاستعمار القديم . ولأن البريطانيين- كما اوضح نانتج - " لم يكونوا قد حددوا ماذا يريدون في مصر فضيعوا على أنفسهم فرصة انهاء احتلالهم للقناة " (٢٧.)

واتجهت الثورة الى المفاوضة مع بريطانيا حول الجلاء من موقع الوضوح الكامل في حتمية الجلاء ومن موقع الوعي الكامل من ان الجلاء لن يتم الا بالقوة.

ورفع عبد الناصر شعار الثورة المعبر عن توجهها هذا حين خطب فى شبين الكوم يوم ٢٣ فبراير وقال كلمته الشهيرة:

"على الاستعمار ان يحمل عصاه على كاهله ويرحل أو يقاتل حتى الموت دفاعا عن بقائه."

كما شرح هذا التوجه بافاضة في حديثه لمراسل جريد الاوبزرفر البريطانية يوم ١٣ ابريل ١٩٥٣ .

"ان مصر لن تتردد في بدء المحادثات مع بريطانيا في سبيل الوصول الى حل عادل عملي لمسألة قناة السويس ولكن يجب التسليم معها مقدما بأننا لن نبحث في اتفاق يشمل الشرق الأوسط ، وانما نعني بقولنا " نريد بلوغ حل عادل " الجلاء عن منطقة القناة."

وبعد أن أدان عبد الناصر في حديثه التسويف البريطاني أوضح صراحة تصميم الثورة:

.. "ان كل ما نقوله هو اننا سنناضل بكل ما أوتينا من قوة حتى وان اقتضى النضال اراقة الدماء.. وستكون تضحياتنا بالغة اذا ما ارغمتمونا على هذا النضال ، ونحن نعرف اننا لن نستطيع ان ندمر الجيش البريطاني ولكننا نعرف ايضا ان في امكاننا ان نجعل مركز بريطانيا في مصر معدوم الفائدة لها ولحلفائها على السواء ".

كما أوضح عبد الناصر بصراحة أيضا رفض الثورة ، ربط مصر بأحلاف الغرب وما يسمونه " الدفاع عن الشرق الاوسط " كشرط لتحقيق الجلاء . ويلاحظ من خلال تحرك عبد الناصر في تلك الفترة بروز ما تميز به في تحركه السياسي من وضوح مبدئي ومرونة في الحركة وكفاءة دبلوماسية.

ودخلت الثورة المباحثات الرسمية مع بريطانيا حول الجلاء في ١٧ أبريل ١٩٥٣. وسرعان ما اعلن عبد الناصر في ٦ مايو وقف المباحثات من جانب مصر لأن المفاوض البريطاني لجأ الى أساليبه القديمة التي خبرها وعانى منها شعب مصر طويلا -وقد شرحها شرحا وافيا شفيق غربال في كتابه القيم تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية- وقامت بريطانيا بسحب سفيرها من مصر يوم ٢١مايو فتجمد الموقف لفترة .

وعملت الثورة خلال هذه الفترة على عدة مستويات لتخوض الجولة التالية. فقامت داخليا بعدد من الخطوات الهامة كان منها قرار مجلس الثورة باجراء تعديل وزاري يوم 18 يونيو والغاء النظام الملكي واعلان الجمهورية واستهدفت هذه الخطوات بلورة السلطة. وقامت عربيا بالتوقيع على معاهدة الدفاع المشترك بين الدول العربية في ١٧ يونيو . وكانت هذه الخطوة تقطع الطريق على الغرب بالنسبة لدعوى الدفاع عن

الشرق الاوسط.
وقامت الثورة بتكوين كتائب الفدائيين وتدريبهم، وباشرت هذه الكتائب نضالها وذكر سلوين لويد في مجلس العموم البريطاني انه " في ستة شهور بلغت الحوادث في القاعدة ١٥٠٠ حادثة ". ووجد الجيش البريطاني نفسه محاصرا بالعداء . وبدا واضحا ان قوات الاحتلال لن تتمكن من أن تعيش حياة مستقرة. وفي ٢٩ نوفمبر من ذلك العام صدر قرار بحظر التعامل وتداول المواد الغذائية مع القوات البريطانية في مصر، فأحكم الحصار على قوات الاحتلال . واعلن عبد الناصر في طنطا يوم اول يناير ١٩٥٤:
"ان الاستعمار لن يخرج بالكلام ولكن بالقوة.."
وكان قد اعلن في ١٤ يونيو ١٩٥٣ بالاسكندرية:
"اننا نكون جيشا كبيرا يخمم ٢٢ مليونا من المصريين وهو قادر على اخراج المستعمر من البلاد.. واننا نوزع السلاح في جميع انحاء البلاد.. اننا نعمل على تدريب جميع ابناء مصر ولن يستطيع المستعمر ان يبقى في بلادنا الا بعد القضاء علينا.. ولن يستطيع الانجليز ان يقضوا على ٢٢ مليونا "
وحاولت بريطانيا ان تؤلب الرأي العام الدولي على مصر فتحركت في مجلس الأمن لاتخاذ قرار يلزم مصر بالسماح لاسرائيل بالمرور من قناة السويس في ٨ فبراير ١٩٥٤، فقابلت الثورة المناورة البريطانية بالرفض الحاسم متمسكة بحق مصر في اعتبار القناة جزءا من اراضيها تمارس عليه سيادتها الكاملة. كما رفضت يوم ٢١ مايو المشروع النيوزلندي المعروض على مجلس الامن والخاص بمطالبة مصر بوقف تفتيش السفن التي تعبر قناة السويس واحالة مشكلة خليج العقبة الى لجنة الهدنة. ورد عبد الناصر على ايدن في ٢٤ مارس بأن المفاوضات لن تستأنف الا على أساس التسليم بحقوق مصر كاملة.
واضطرت بريطانيا أمام اصرار الثورة ونتيجة سوء الأوضاع التي تحيط بقواتها في القناة الى التسليم بحقوق مصر كاملة. واضطر ايدن - وزير الخارجية البريطانية آنذاك - الى ان يعترف بأن الجلاء عن قاعدة السويس " افضل بكثير " من الابقاء على ثمانين الف جندي محاصرين من شعب معاد لهم ". وهكذا حزمت بريطانيا امرها على ان تستعيض عن قواعدها المركزة في القناة بجيوب صغيرة حول البحر المتوسط (٢٨) .
واستؤنفت مفاوضات الجلاء يوم ١١ يونيو ١٩٥٤ بين الجانب المصري برئاسة جمال عبد الناصر وبين الجانب البريطاني برئااسة انتوني نانتج.
وفي ٢٧ يوليو تم التوقيع بالاحرف الاولى على اتفاقية الجلاء وصدر بلاغ مشترك بذلك . واعلن عبد الناصر يوم ٢٩ يوليو ان الاتفاقية ليس فيها تحالف عسكري ولا دفاع مشترك ، وهي لا تعدو ان تكون مجرد مرحلة من مراحل البناء . وأوجز عبد الناصر ما حققه في هذه المرحلة من خلال الاتفاقية فقال في ٢٦ يوليو ١٩٥٤:
"اننا كنا نهدف الى هدفين اولهما الجلاء الكامل لجميع القوات الاجنبية حتى لا تتواجد في هذه البلاد سوى البذلة العسكرية المصرية. والهدف الاخر هو عدم الارتباط بأي حلف أو معاهدة للدفاع المشترك. وأنا أقول اننا نجحنا في تحقيق هذين الهدفين. "
ولقد تم في ٢٨ سبتمبر ١٩٥٤ تعيين اول قائد مصري لقاعدة قناة السويس كما تم توقيع اتفاقية الجلاء في ١٩ اكتوبر من ذلك العام وقد نصت الاتفاقية على جلاء القوات البريطانية جلاء تاما عن الاراضي المصرية خلال فترة عشرين شهرا من تاريخ التوقيع على الاتفاق ، وعلى انقضاء معاهدة ١٩٣٦ ، وانتقال ملكية جميع المطارات والمنشئات الى مصر، وان قناة السويس البحرية جزء لا يتجزأ من مصر، وان الاتفاق يظل نافذ المفعول لمدة ٧ سنوات بعد توقيعه . كما نصت الاتفاقية على انه في حالة وقوع هجوم مسلح من دولة من الخارج على أي بلد يكون طرفا في معاهدة الدفاع المشترك بين دول الجامعة العربية او على تركيا، فان مصر تساعد بريطانيا على تهيئة (القاعدة) الحربية وادارتها ادارة فعالة. وكان هذا النص هو الشرط الذي سرعان ما تحلل عبد الناصر منه وألغى الاتفاقية بكاملها اثر العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦. وسرعان ما استولت مصر على نصف القواعد البريطانية ، وسمحت للنصف الباقي ان يدار من قبل مدنيين بريطانيين حتى يتم الانسحاب كاملا.
وانتهت المرحلة الأولى للجلاء يوم ١٨ فبراير ١٩٥٥، وتم خلالها رحيل ٢١ آلف جندي بريطاني من منطقة القناة ورفع عبد الناصر يوم ٢٢ مارس العلم المصري فوق معسكر " الشلوفة " بمنطقة القناة لأول مرة منذ ٧٣ عاما . وفي ١٩ يونيو ١٩٥٥ انتهت المرحلة الثانية من جلاء القوات البريطانية وتم تسليم مصر ١٥ منشأة في منطقة القناة . وفي ١٣ يونيو ١٩٥٦ تم جلاء آخر فوج من القوات البريطانية عن مصر، فيما عدا)القاعدة) بمنطقة القناة ورفع عبد الناصر علم مصر في يوم الجلاء١٨ يونيو ١٩٥٦ على مبنى البحرية ببور سعيد في لحظة وصفها بأنها:
"كانت لحظة العمر . بل كانت العمركله. وقدر لهذا الجيل ان يشهد بعينيه فلول المحتل الغريب تتسلل خارجة عائدة من حيث أتت. "
وهكذا نجحت الثورة في تحقيق جلاء قوات الاحتلال .. الحلم الذي عاشه الشعب وناضل من اجله. وأصبح يوم ١٨ يونيو يوما خالدا في تاريخ مصر واصبح أسلوب عبد الناصر في مجابهة المستعمر مثلا يحتذى في

الوطن العربي والعالم الثالث .. هذا الاسلوب الذي يرفض المساومة على المبدأ وعلى حق الشعوب في حرياتها ولقد قارن عبد الناصر بين منطلقه وأسلوبه في معركة الجلاء التي خاضتها الثورة وبين منطلق الرجعية الحاكمة في مصر قبل الثورة واسلوبها حين فاوضت الانجليز المرة تلو المرة ، فقال في اللجنة التحضيرية نوفمبر ١٩٦١:

"بدأنا أول معركة من اجل تنفيذ الهدف الاول من اهداف الثورة .. القضاء على الاستعمار وأعوانه. وكان معناه ان ندخل مع الانجليز في معارك مستمرة سواء من الناحية السياسية او في منطقة القناة اذا دعا الامر الى حرب العصابات . دخلنا معارك مع الانجليز من أجل الجلاء ، معارك مع الانجليز من أجل الاستقلال . كان أيه موقف الرجعية واحنا نجابه الانجليز سواء من الناحية السياسية او نجابههم في منطقة القنال؟

الرجعية كانت دايما متخوفة، والرجعية كانت دايما تعتقد بأن المساومة هي السبيل الوحيد للحصول على اتفاق بأي طريق كان مع الانجليز .والثورة الاصيلة لا يمكن بأي حال ان تعرف المساومة...

وأنا أذكر اول ايام الاتفاق مع الانجليز.. شفت ناس من اللي كانوا بيتعاونوا مع الانجليز.. عبود كان بيقول لي يعني انت صغير يا جمال بك انت مش عارف الانجليز ابدا. الانجليز دول دوخوا الدنيا، ازاي احنا نقف قصاد الانجليز اذا كنت بتتفاوض مع الانجليز ما تنساش ان دول الانجليز اللي كسبوا الحرب ودوخوا المانيا..

السياسيين الآخرين بيعتبروا ان منطق المساومة هو المنطق المفروض . كانت الرجعية لغاية دلوقت بتعتقد ان السفير الانجليزي او السفير الاميركي يستطيع ان يؤثر او يكون له دخل في الوزارة . "

ارتبط نضال الثورة لتحقيق الجلاء بنضالها ضد الاحلاف الاجنبية، ليتحقق فعلا ومضمونا مبدأ الثورة الاول .. القضاء على الاستعمار. ولقد لاحظ عبد الناصر منذ بداية تصديه للاستعمار ارتباط معركة الجلاء بمعركة اسقاط الاحلاف الاجنبية فخاض المعركتين في وقت واحد رافضا بحزم ما لجأ اليه الاستعمار في عدد من المستعمرات في الوطن العربي او العالم الثالث من منح استقلال صوري تقيده معاهدات وأحلاف تسلبه معناه . وهكذا حدد عبد الناصر ضمن مبدأ القضاء على الاستعمار هدفين مترابطين هما " الجلاء الكامل لجميع القوات الأجنبية وعدم الارتباط بأي حلف او معاهدة للدفاع المشترك."

وكان الغرب يعمل جادا على ربط منطقة الوطن العربي بنظام الاحلاف وكانت وزارة الخارجية الاميركية- كما اوضح جون كامبل- تريد " ان تنضم مصر الى نظام الاحلاف الغربية التي كان العمل فيها يجري على قدم وساق " (٢٩) وقد أقر جون فوستر دالاس صاحب نظرية هذا الحزام تقديم قرض بأربعين مليون دولار الى مصر على هذا الاساس . وسرعان ما أتبعه بعرض للعون العسكري تطبيقا لما يسمى ببرنامج الأمن المتبادل . وقام دالاس بزيارة مصر وصرح في ١١ مايو ٥٤ انه يؤيد الجلاء على مصر تدريجيا مع تنظيم الاشراف الفني على قاعدة القناة معتقدا ان مصر ستنضم الى " حلف بغداد " الذي بدأ الغرب بتكوينه قي عام ١٩٥٤.

و كانت اميركا- ودول الغرب عموما- تنطلق في الدعوة الى الاحلاف من الحديث عن " خطر شيوعي " يتهدد المنطقة و " العالم الحر ". ويحدثنا " كامبل " في كتابه عن وجهة النظر الاميركية في الاحلاف فيقول " لا مجال للشك في " اهتمامنا " بالشرق الأوسط من أجل السلام والاستقرار ومن اجل القواعد ومصالحنا البترولية ومقاومة الشيوعية والمهم كيف نترجم هذا الاهتمام الى سياسة ؟ ويقول " ان سيطرة السوفييت على هذه المنطقة الاستراتيجية سوف يخل بشكل! قوي بالتوازن العالمي . كما ان سيطرة السوفييت على بترول الشرق يمكن أن يخرب اقتصاد العالم الحر. وانتصار الشيوعية في قلب العالم الاسلامي من الممكن ان يكون سببا في انتصارها في آسيا وافريقيا واوروبا . ولذا فانه لأمر أساسي بالنسبة للولايات المتحدة ان يبقى الشرق الاوسط جزءاً من العالم الحر ". ولكي يؤكد كامبل هذا الاهتمام يقول " ولكن حتى لو لم يوجد تهديد سوفييتي بالمرة فإنه سيبقى في " هم " الولايات المتحدة ان تجد قواعد للتوفيق بين الحضارات الشرقية والغربية ولمنع صدمات الثورات ولخلق ظروف يمكن لمجتمعنا الحر فيها ان يتطور ويتقدم ". ويشرح كامبل بتفصيل نمو الاهتمام الأميركي بالمنطقة مع نمو مصالحها فيها . ثم يحكي قصة مشروع " الدفاع المشترك " الذي وضعته بريطانيا واميركا عام ١٩٥١.. ليجمع بين الدول العربية واسرائيل وايران . ويشرح اسباب فشله التي كان من اهمها رفض مصر له لخلافها مع بريطانيا حول الجلاء . ويبين كامبل ان الغرب عمد بعد ذلك الى طرح حلف بغداد ليكون بديلا عن مشروع الدفاع المشترك (٣٠).

وعى عبد الناصر بعمق حقيقة الاحلاف واهدافها الاصيلة فقاومها بعنف وطرح وجهة النظر العربية الثورية فيها معبراً عن ارادة الجماهير ومدافعا عن مصالحها القومية . فبالنسبة لمشروع الدفاع المشترك قال عبد الناصر في ١٧ مارس ١٩٥٣:

"ليفهموا ان الدفاع عن الشرق الاوسط يعني دول المنطقة اكثر من غيرهم، ولن يستطيع شعب ان يرزح تحت نير الاستعمار ان يدافع عن استمرار هذا الاستعمار في وطنه بحجة تخويفه من اعتداء آخر قد يتعرض له هذا الشعب وقد لا يتعرض له.

"اننا نريد جلاء ناجزا غير مشروط ، ومتى استأصلنا شأفة الاستعمار من بلادنا، فليطمئن الغرب الى أننا سنكون أحرص منهم مئات المرات بل آلافها على حريتنا واستقلالنا، فاذا تعرضنا لاعتداء أيا كان مصدره فسنقف جميعا وقفة رجل واحد للذود عن حريتنا .. وفي هذه الحالة لن نتردد في محالفة الشيطان نفسه- كما

قال زعيمهم تشرشل في الحروب الماضية- لرد هذا العدوان."
وطوال فترة مفاوضات الجلاء وما تخللها من شد وجذب تمسك عبد الناصر برفض فكرة الأحلاف الأجنبية بالنسبة لمصر والدول العربية. واعلن بوضوح ان هذه الأحلاف ليست سوى استعمار مقنع .وقد صرح في ٣١ اغسطس ١٩٥٤ :
"ان الدول العربية لا يمكن ان تشترك مع الدول الغربية الكبرى في أى مشروع للدفاع عن الشرق الأوسط لأن شعوب هذه الدول ترى ان المنظمة ليست سوى استعمار مقنع."
ووضح لعبد الناصر خلال معركته ضد الاحلاف ضرورة التحرك على المستوى العربي ليتعزز موقف مصر الثورة بموقف عربي عام واحد . ولأن حماية القاعدة يستوجب توفير منطقة دفاع حولها، وانطلاقا عن الايمان بوحدة المصير العربي . وهكذا انعقد اجتماع عربي ضم رؤساء الدول العربية يوم٢٢ يناير بالقاهرة لبحث السياسة التي اعلنتها الثورة بمعارضة الاحلاف العسكرية . وأصر نوري السعيد رئيس وزراء العراق وقتذاك على عقد حلف عسكري بين العراق وتركيا وايران وباكستأن وبريطانيا والولايات المتحدة ودعا الدول العربية للدخول فيه . ولكن مصر الثورة عارضت بقوة وأوضحت ان فكرة الاحلاف تمحو فكرة الجامعة العربية والضمان الجماعي العربي . واعلن عبد الناصر يوم ٢ فبراير ٥٤ :
"ان مصر ستعمل من أجل العرب ، ومن اجل قوتهم وقوميتهم . وهي ترفض سياسة ربط العرب بأي دولة أجنبية . "
كما وضح لعبد الناصر خلال تلك المعركة- ضرورة التحرك على المستوى الدولي ليتعزز الموقف العربي بموقف دول العالم الثالث . وفي هذا النطاق كان اجتماع جواهر لال نهرو زعيم الهند الكبير بعبد الناصر لأول مرة في القاهرة يوم ١٥ فبراير ١٩٥٥ . وقد تضمن البيان المشترك الذي صدر عن الاجتماع اعلان ان " الاحلاف العسكرية لا تكفل السلام في أي دولة ووجوب حل المشاكل الدولية عن طريق المفاوضات السلمية وتأييد الجهود التي تبذل لتحرير الشعوب " وزار نهرو القاهرة مرة ثانية في ١١ يوليو وصدر البان عن اجتماعه بعبد الناصر يتضمن اسنكار عقد حلف تركيا العراق . وفي هذا النطاق ايضا كانت مشاركة عبد الناصر في مؤتمر باندونغ الذي عقد يوم ٢٤ ابريل ١٩٥٥ .. بأندونيسيا وضم ٢٩ دولة آسيوية وافريقية . ونادى عبد الناصر في المؤتمر بسياسة الحياد الايجابي وعدم الانحياز . وفي هذا النطاق ايضا اتجه عبد الناصر لكسر احتكار السلاح بعد أن اعلن يوم ٣١ مارس " اننا لم نصل الى نتيجة لشراء اسلحة من الغرب لأننا رفضنا أن تملى علينا شروط " . وفي ٢٧ سبتمبر من ذلك العام عقدت مصر صفقة الاسلحة مع تشيكوسلوفاكيا .
ولقد شرح عبد الناصر بإفاضة ووضوح موقفه من الاحلاف وروى قصة الاجتماعات واللقاءات التي تمت في تلك الفترة . ومن أشمل خطاباته في هذا الشأن خطابه في افتتاح الموسم الثقافي للقوات المسلحة يوم ٣١ مارس ١٩٥٥ . ويفيدنا أن نورد مقتطفات طويلة منه لنتعرف على وجهة النظر العربية الثورية . فقد قال عبد الناصر :
"عندما نرجع الى عامي ١٩٥٠ و ١٩٥١ نجد أن الدول الغربية حاولت ان تسد هذه الثغرة (الروح التحررية للشعوب) بايجاد طريقة لتنظيم الدفاع عن الشرق الاوسط . ولكن لم تستطع أية حكومة من الحكومات الموجودة في هذه المنطقة في ذلك الوقت ان تقبل هذا العمل أي اتفاق الدفاع المشترك لسبب واحد هو أن الكراهية التي كانت شديدة بعد فلسطين ونكبة فلسطين كانت تؤثر على العرب .. من اجل ذلك لم يتمكن الغرب من تنظيم الدفاع عن هذه المنطقة .
كانوا يعتبرون أن مصر هي العامل الاساسي في هذا الموضوع ، وان مصر اذا وافقت على الدفاع المشترك الذي وضعوه قد ينظم الدفاع عن هذه المنطقة في صالح الغرب .
أوضحنا لهم وجهة نظرنا اثناء المفاوضات وقلنا اننا لا نستطيع أن نقبل ميثاق الدفاع عن الشرق الأوسط مرة أخرى .
اعتبروا ان الشيوعية خطر ، ولكني لا زلت اعتقد ان الاستعمار أو السيطرة علينا من الجانب الآخر يمثل خطرا أكبر .. لقد تخلصنا من الاحتلال البريطاني باتفاقية لاحتلال القاعدة لمدة سبع سنوات ، يعني أن هناك التزام علينا ، فاذا حدثت حرب فانهم سيأتون لاحتلال القاعدة . ولكن هذا الالتزام نعتبره التزاما بسيطا ، اما في حالة التحالف او تنظيم الدفاع عن الشرق سنرتبط بالتزامات اخرى . ولست ادري هل موقفي اليوم يمكنني من استبقاء السيادة اذا قبلت القيام بهذا الالتزام أم لا ؟
انني اعتبر ان مصر في وقتها الحالي وهي تبدا مرحلة من مراحل التحرير يجب أن تتخلص من كل نفوذ أجنبي تخلصا كاملا حتى تستطيع ان تقف على اقدامها . لاتدخل ابدا نتيجة الضغط . لا تدخل وهي شاعرة انها ليست قوية ..فنحن من الناحية الاقتصادية لسنا اقوياء.
هناك اناس يقولون انه من الناحية الاقتصادية علينا ان نعتمد على نواح خارجية. وأنا أرد على هذا قائلا اننا اذا اردنا أن نبني اقتصادنا القومي على اساس سليم ، يجب ان يعتمد علينا اعتمادا كليا ..واذا لم نوجه التوجيه السليم فلن نستطيع تحقيق هدف الثورة الخاص بالوصول إلى مجتمع اشتراكي يرتفع فيه مستوى

المعيشة ويقوى فيه الوطن اقتصاديا وانتاجيا.
قلنا في حديثنا اثناء المفاوضات اننا مستعدون للدفاع عن الشرق الاوسط . ولكن على أي اساس؟ قلنا لهم انه يجب ان تنبثق الدفاع عن المنطقة ، ويجب ان يكون بسواعد ابنائها.. بدون أي تدخل اجنبي. "
بهذا المنطق تكلم عبد الناصر مع جون فوستر دالاس :
"في ابريل سنة ١٩٥٣، جاء الى هنا وزير خارجية امريكا وتكلمنا معه في هذأ الشأن . وقلنا اننا مستعدون للسير خلف قيادة مشتركة منا وجيش موحد منا، لانني عندما ادخل في قيادة مشتركة مع انجلترا واميركا فسأكون بينهما في صورة اناس يتقاضون مرتبات في القيادة ... سيكون لهم كل النفوذ: انهم يأتون بالمال ويأتون بالسلاح ويضعون الخطة وسيقول الباقون حاضر يا فندم وبهذه الطريقة سنفقد شخصيتنا فقدانا كاملا. من اجل ذلك رفضنا الدفاع المشترك. "
وبهذا المنطق تكلم عبد الناصر مع ايدن حين زار القاهرة في مطلع عام ١٩٥٥. فقد سأله هل تنوي بريطانيا في يوم من الايام ان تقوم بهجوم عسكري ضدنا ، فلما اجاب ايدن بالنفي الشديد قال عبدالناصر:
"اذن فلماذا ترفضون رأينا في الدفاع عن الشرق الاوسط؟ اننا نريد ان يدافع الشرق الاوسط عن نفسه ضد أي اعتداء.. وانتم- وقد أكدت هذا بنفسك- ليس في نيتكم ان تعتدوا واذا جاء علينا الاعتداء من غيركم فسوف نكون نحن الذين نطلب منكم العون... فما هو أصراركم اذن على ان يكون الدفاع عن الشرق الاوسط بأحلاف عسكرية تشتركون فيهامعنا؟ ان الناس ينظرون الى هذه الأحلاف على أنها استعمار جديد...

==========
عبد الناصر والثورة العربية ٤ - أحمد صدقي الدجاني

أين هي روسيا؟</ br>
</ br>
لو قلت للناس الان تعالوا نوقع حلفا عسكريا مع بريطانيا ضد روسيا، لنظر الي الناس بذهول وقالوا</ br>:
أين هي روسيا ، ان روسيا على بعد ثلاثة آلاف ميل من هنا! وسوف يقول لي الناس ايضا</ br>:
ان بريطانيا هي التي استعمرتنا ، وبريطانيا هي التي احتلت مصر وما زالت تحتل الاردن والعراق وليبيا، فهل تريد منا ان ننسى الخطر القائم على ارضنا فعلا ونتطلع الى خطرمحتمل على بعد ثلاثة آلاف ميل منا <br...
/>
وسوف يكون الناس على حق ان هم قالوا لي ذلك ولن اجد ردا اتمكن به من اقناعهم . ولكني سأتمكن من اقناعهم اذا قلت لهم ان بريطانيا خرجت من بلادكم ونحن الان احرار... وهذا الاستقلال الان امانة في رقابنا ويجب ان نحميه ضد اي اعتداء من اي معتد</ br>. "
وبهذا المنطق تكلم عبد الناصر مع نوري السعيد حين جاء الى مصرفي مطلع عام ١٩٥٥ بعد أن زار صلاح سالم العراق للبحث في تقوية ميثاق الضمان الجماعي العربي الذي يعبر عن الدفاع الذاتي عن المنطقة <br>:
/>
"وجاء نوري السعيد الى مصر، وبدأنا نتكلم معه في تقوية ميثاق الضمان الجماعي . فقال نعم هذه خطوة عظيمة ولا بد ان نخطوها معا</ br>.
قلنا له : وكيف يقوى ميثاق الضمان الجماعي ؟</ br>
قال أرى ان نستدعي سفيري امريكا وبريطانيا ونقول لهما اننا نريد تقوية ميثاق الضمان . فما هى الوسائل وما هي اقتراحاتكم؟</ br>..
قلت له أنا اعرف وسائلهم ومقترحاتهم فقد مضى علي عامان وانا اتكلم معهم في هذا الموضوع ، واذا سألتهم اليوم فإن ذلك يعتبر بداية للمفاوضات والمباحثات الجديدة الخاصة به ، وكل الذي اريده الآن هو معرفة وجهة نظرك</ br> .
وبعد حيرة ومراوغة قال تقوية الميثاق بتوسيعه بضم الباكستان وتركيا ونعمل تحالف مع اميركا وانجلترا وبهذا نضمن التسليح ونكون عمليين .. فقلت له ان هذا الطريق لا نستطيع السير فيه، واننا نعتبر ان اشتراك اية دولة من الدول الكبرى في هذا الدفاع قد يحد من موجة التحرر التي نسير فيها اننا نريد ان نأخذ وضعنا، نريد تقوية شخصيتنا، نريد دفاعا ينبثق من المنطقة</ br>."
وهكذا صمد عبد الناصر أمام ضغوط الدولتين اميركا وبريطانيا وجابه مخططاتهما لعزله عن الدول العربية والعالم الثالث، ولتهديده بالخطر والعدوان الأسرائيلي . ورد بالتحرك الواعي الشجاع على المستويات الداخلي والعربي والدولي . وتجاوب معه الشعب العربي على مدى مساحة الوطن العربي فكان الانتصار في المعركة

العربية التي قادها عبد الناصر ضد الاحلاف</ br> .
وكان مقدرا لعام ١٩٥٦ ان يكون العام الفاصل في تحقيق المبدأ الاول للث
ففي ذلك العام قام عبد الناصر يوم ٢٦ يوليو بتأميم قناة السوي
الثلاثي على مصر . وقد تتالت الأحداث منذ بداية ١٩٥٦
اعظم انتصارات الامة العربية على الاستعمار
فبعد أن خاض عبد الناصر معركة جلا
الناصر معركة الاحلاف الاجن
وعربيا لتحقيق التض
، جاء الصد

"ديموقراطية الاشتراكية تختلف عن ديموقراطية الرجعية التي جربناها في الماضي .. والتي كانت تعني أن تتحكم فئة من الاقطاعيين وقلة من الرأسماليين وقلة من الانتهازيين السياسيين اللي يبيعوا أنفسهم للاقطاعيين والرأسماليين ويستولوا على السلطة وعلى الدولة من أجل مصالحهم.
أما الديموقراطية الاشتراكية فهي ديموقراطية الشعب العامل الذي له الحق في ناتج عمله وله الحق في بلده . ديموقراطية الاشتراكية هي الديموقراطية الاجتماعية مع الديموقراطية السياسية... هي القضاء على الاقطاع والاحتكار وسيطرة رأس المال وايجاد الفرص المتكافئة للجميع. " ..
كما قال عنها في افتتاح مجلس الأمة يوم ٢٥-٣- ٦٤ مبينا دور التنظيم فيها:
"ان الديموقراطية عملة واحدة ذات وجهين سياسي واجتماعي . وبغير الوجهين معا تصبح عملة زائفة لا سعر لها ولا قوة.
ان الديموقراطية لا تتحقق في كمالها الا بقيام التنظيم السياسي شامخا واقفا لها. والا بقيام المجالس الشعبية المنتخبة توقع بارادة الجماهير الحرة كل قرار .وتؤكد بالفعل لا بمجرد القول ان صوت الشعب من صوت الله ".
وأوضح عبد الناصر أن هذه الاشتراكية علمية بمعنى أنها قائمة على العلم . وهذا لايعني أنها مادية أو ماركسية. وأكد أنها لا تنكر الدين بل تؤمن به وترى فيه سندا لها. كما رأى أن تطبيقها في الوطن العربي هو التطبيق العربي للاشتراكية . فنراه يقول أمام مجلس الأمة ١٢ نوفمبر١٩٦٤:
"احنا اشتراكيتنا هي اشتراكية علمية : قائمة على العلم وليست قائمة على الفوضى . مقلناش انها اشتراكية مادية .. مقلناش ان احنا اشتراكيتنا ماركسية. ومقلناش احنا خرجنا على الدين . بل قلنا ان ديننا هو دين اشتراكي. "
وهكذا يكون عبد الناصر قد قدم اضافات الى الفكر الاشتراكي من خلال تصوره لهذه الاشتراكية العربية.
وينبغي أن نلاحظ أن سلطة الدولة هي التي أحدثت التغيير نحو الاشتراكية ، وهي التي قادت التحول الاجتماعي ، وذلك في غياب التنظيم الثوري . ولقد كان لهذه الحقيقة سلبياتها التي تستحق مناقشة خاصة عند تقويم إلتجربة ككل ولكن التجربة حققت نجاحا على الرغم من السلبيات . كما أن التجربة أثبتت أنه يمكن أن تقوم ثورة اشتراكية في دول العالم الثالث عموما دون أن تعتمد في قيادتها على ديكتاتورية البروليتاريا.
وأثبتت ايضا ان الدين في جوهره هو دافع للتقدم البشري وليس معوقا للتقدم أو " أفيونا " للشعوب .
واعترفت التجربة بالملكية الفردية غير المستغلة .وأخيرا أوضحت على لسان عبد الناصر في حديثه للشباب في حلوان:
"ليست هناك بابوية في الاشتراكية ومفيش نصوص جامدة ولا نصوص ناشفة."
وهكذا أوضح عبد الناصر بجلاء البعد الطبقي في فكرة القومية العربية وبين تلاحمه بأبعادها الأخرى.
بهذا التحديد الواضح لأبعاد فكرة القومية العربية خلص عبدالناصر الفكرة من تناقضاتها ونقلها من مرحلة العاطفية الى مرحلة النضج . فنضجت فكرة الثورة العربية الواحدة الشاملة المعبرة عنها والقادرة على تحقيق الآمال العربية .. ولقد عرّف عبد الناصر هذه الثورة بقوله في نوفمبر ١٩٦٥:
"ان الثورة العربية الشاملة لا يمكن ان تكون مجموعة من المغامرات او الانقلابات ، وانما هي الحركة التاريخية لجماهير الأمة العربية للقفز عبر التخلف.. الى التقدم السياسي والاجتماعي والثقافي مستندة على القيم الحضارية للامة العربية محققة بالنضال الثوري أهدافها."
وأكد عبد الناصر في الميثاق:
"ان الثورة هي الطريق الوحيد الذي يستطيع النضال العربي أن يعبر عليه من الماضي الى المستقبل.
والثورة هي الوسيلة الوحيدة التي تستطيع بها الأمة العربية أن تخلص نفسها من الاغلال التي كبلتها ومن الرواسب التي أثقلت كاهلها..
والثورة هي الوسيلة الوحيدة لمغالبة التخلف الذي أرغمت عليه الأمة العربية كنتيجة طبيعية للقهر والأستغلال . والثورة بعد ذلك هي الوسيلة الوحيدة لمقابلة التحدي الكبير الذي ينتظر الأمة العربية وغيرها من الامم التي لم تستكمل نموها . "
وحدد عبد الناصر أهداف النضال العربي التي تبلورت من خلال مراحله المتعاقبة معبرة عن فكرة القومية العربية. وأعلن في الميثاق أن الثورة مطالبة بأن تشق طريقا جديدا أمام هذه الأهداف:
"ان عهودا طويلة من العذاب والأمل بلورت في نهاية المطاف أهداف النضال العربي ظاهرة واضحة ، صادقة في تعبيرها عن الضمير الوطني للأمة وهي الحرية والاشتراكية و الوحدة.
"لقد أصبحت الحرية الآن تعني حرية الوطن وحرية المواطن . وأصبحت الاشتراكية وسيلة وغاية ، هي الكفاية والعدل . وأصبح طريق الوحدة هو الدعوة الجماهيرية لعودة الأمر الطبيعي لأمة واحدة مزقها اعداؤها ضد ارادتها وضد مصالحها ، والعمل السلمي من أجل تقريب يوم هذه الوحدة . ثم الاجماع على قبولها ، تتويجا للدعوة والعمل معا .
لقد كانت هذه الأهداف نداءات مستمرة للنضال العربي ، ولكن الثورة العربية الآن تواجه مسؤولية شق طريق

جديد أمام هذه الأهداف."
ذاك ما حققته الثورة العربية التي قادها عبدالناصر في مجال بلورة فكرة القومية العربية وتحديد أهداف النضال العربي المنطلق منها والمعبر عنها. وقد عنى هذا الذي تحقق على مستوى الوطن العربي استقرار الفكرة على أسس علمية واقعية موضوعية تمكن الثورة من الانطلاق ، وتحقق التحام الجماهير العربية بها. كما عنى على مستوى مصر خروجها من صراع الايديولوجيات بوضوح الرؤية الكامل لكيانها وجوهرها . وعلى حد قول جمال حمدان " فاذا الاسلامية وحدة عقيدة وتعاون لا وحدة قومية ومصير .واذا وحدة وادي النيل جزء من كل فقط . واذا الوطنية المحلية جزء قاصر من نفس الكل . أما الكل فهو العروبة وحدها، وقدرنا هو القومية العربية ، ومصير مصر هو الوحدة العربية . وهذا ما عبرت عنه بصورة نهائية وحاسمة مصر الثورة " (٥٠.)
وعنى أخيراً على مستوى العالم الثالث ظهور ثورة التحرير معبرة عن القوة الثالثة ، وطارحة انموذج ثورة العالم الثالث... ثورة قومية لا طبقية في مقابل ثورات العالم الرأسمالي القومية الطبقية ، وثورات العالم الشيوعي اللا قومية واللاطبقية.
ويوصلنا هذا الحديث عن انجاز عبد الناصر في هذا المجال الى" الناصرية " ، فلقد خلف عبد الناصر وراءه تراثا من الأقوال والأعمال تضمنتها التجربة العربية الثورية، تمثل بمجموعها فكر عبد الناصر الذي هو فكر الثورة العربية . وعلى هذا فاننا نرى " الناصرية " كثورة هي مرادف للثورة العربية القومية الشاملة.
ومع أن فكر عبد الناصر انطلق من نظرات ومبادىء لم يكن واضحا في البداية انها تمثل نظرية ، الا أن مسيرة " الناصرية " بلورت هذا الفكر حتى أصبح من الممكن بجهد تبذله الطلائع العربية أن يطرح نظرية متكاملة.. هي النظرية القومية اللاطبقية. ولقد وصف بعض الماركسيين الناصرية بأنها " نظرية للبرجوازية الصغيرة عن الثورة الوطنية الديموقراطية في عصر الانتقال على النطاق العالمي من الرأسمالية الى الاشتراكية. وانها نظرية للثورة الوطنية المستمرة التي تكتسب مضمونا اجتماعيا صريحا، و من ثم تقطع مراحل ثلاثا واضحة هي كسب الاستقلال ثم مرحلة التنمية الاقتصادية ثم مرحلة التحول الاجتماعي . وانها نظرية للثورة الوطنية . و للقضاء على التخلف .. وللتحرر الوطني والتقدم الاجتماعي والوحدة القومية " . ووجهوا اليها النقد بأنها " لم تتخلص بعد من اصولها البرجوازية الصغيرة . ومن ثم تنطوي على تناقضاتها... التي أخطرها قيامها منهجيا على التجريب والانتقاء.(51) "
والحق أن منهج التجربة والخطأ مثل مرحلة أولية في التجربة العربية الثورية لم تلبث الثورة أن تخطتها لتصل الى منهج النظرية الذي تضمنه الميثاق . وهكذا فان هذه المرحلة الاولية التي حكمها منهج التجربة والخطأ تنتهي عند صدور الميثاق . وقد سبق أن تعرضنا في المدخل لتفسيرها . ونلاحظ أن عبد الناصر كان واضحا في الحديث عنها حين شرح مسيرة التجربة ، وفي معرض رده على ما رددته بعض الأحزاب العربية القومية من نقد لمنهجه. ومما قاله في جلسات مباحثات الوحدة:
"احنا كان عندنا الشجاعة في أول الثورة نقول ما فيش نظرية.. فيه مبادىء محددة .. ونمشي بالتجربة والخطأ حتى نعمل النظرية.. وحتى نقيم هذه النظرية .
مشينا بالكلام ده عشر سنين.
ومشينا في التجربة والخطأ.. وبقينا نقول ان احنا بنغلط ٤٠% وبنغلط .. 50% وبقينا نقول ما عندناش نظرية..
وبعد كده قدرنا نعمل .. قدرنا نعمل تطبيق ... وبعدين عندنا تجربة تطبيق ١١ سنة مستمرة أدت أساس للنظرية بالنسبة للحرية وبالنسبة للاشتراكيه وبالنسبة للوحدة . كل شيء مبين في الميثاق."
أما منهج الانتقاء الذي رآه ناقدو الناصرية تناقضا فيها ودللوا عليه بتمييز عبد الناصر اشتراكيته العلمية عن الاشتراكية الماركسية اللينينية مع قوله بالعلمية وبحتمية الحل الاشتراكي ، فإن عبد الناصر طرح بوضوح - كما سبق أن مر معنا- أن صفة العلمية في الاشتراكية ليست حكرا على الماركسية ولا مرادفا لها ، وحدد معنى العلمية.
"احنا اشتراكيتنا هي اشتراكية علمية ، قائمة على العلم . اشتراكيتنا علمية وليست قائمة على الفوضى.. مقلناش ان احنا اشتراكيتنا اشتراكية مادية... ومقلناش ان احنا اشتراكيتنا ماركسية.."
ولقد قصد عبد الناصر من وصفه اشتراكيته بالعلمية التأكيد على استخدام الاسلوب والمنهج العلمي في دراسة حركة المجتمع ، وبهذا الاسلوب يكون التفريق بين الاشتراكية العلمية والاشتراكية الخيالية. واذا كانت الماركمية ايضا في القرن الماضي اعتمدت على استخدام الاسلوب والمنهج العلمي فان هذا لا يعني أبدا الوصول الى النتائج التي توصلت إليها . لأن الاختلاف بين النتائج كما يقول الدكتور ابراهيم سعد الدين " قد يعود الى أسباب متعددة . فبافتراض وحدة المنهج وأسلوب البحث العلمي فقد ينتج الاختلاف عن بروز عوامل جديدة لم يكن أخذها في الحسبان بواسطة باحثين سابقين ، أو قد ينتج من أن البحث المتعمق في ظاهرة ما قد يوضح أن التعميم السابق للوصول اليه والذي صيغ في قانون علمي هو حالة فقط من ضمن حالات متعددة مما يطرح ضرورة اعادة صياغة القانون السابق ليكون اكثر دقة في التعبير عن الظواهر المتنوعة والمتعددة

والمتشابكة . وكما يأتي الخلاف نتيجة لمثل هذه العوامل الموضوعية فقد يعبر ايضا عن مدى دقة هذا الباحث أو ذلك ومدى مهارته في التحليل والملاحظة والتعمق في معرفة اسباب الظواهر... " (٥٢.(
وانطلاقا من العلمية لم يخطىء عبد الناصر جميع النظريات السابقة على التجربة الثورية التي قادها ولم يعلن الرفض المسبق لهذه النظريات. ولكنه في الوقت نفسه أوضح أن عدم الرفض المسبق لا يعني بالضرورة التسليم الكامل بالنتائج التي وصلت اليها التجارب السابقة والاستغناء بها عن التجربة الوطنية. وحين حمل الميثاق التجربة الثورية العربية مسؤولية شق طريق جديد أمام اهدافها اوضح ان الحاجة الى ذلك " لا تصدر عن رغبة في التجديد لذاته ولا تصدر عن الكرامة الوطنية، وانما لأن الثورة العربية تواجه ظروفا جديدة . ولا بد في مواجهة هذه الظروف أن تجد الحلول الملائمة لها " . وقد أخذ عبد الناصر في الاعتبار فضلا عن ظروف المنطقة العربية- مهد هذه الثورة- الظروف العالمية خلال النصف الاول من القرن العشرين وما أتت به من تغييرات شاملة وعميقة على الجو الذي يجري فيه النضال الوطني لكل الأمم . ولذا فقد رأى الميثاق أن العمل الاشتراكي " لم يعد حتما عليه ان يلتزم التزاما حرفيا بقوانين جرت صياغتها في القرن التاسع عشر، وأن النضال الوطني للشعوب والأمم وان كان غير مطالب بأن يخترع مفاهيم جديدة لأهدافه الكبرى الا انه " مطالب بأ! ن يجد الاساليب المسايرة لاتجاه التطور العام والمتفقة مع طبيعة العالم المتغيرة."
ان هذه الاشتراكية العلمية التي تبناها عبد الناصر أوصلت الى التطبيق العربي للاشتراكية الذي يلتقي مع التطبيقات الاخرى في نقاط عدة ويختلف معها في نقاط عدة . وعلى هذا فليس منهج الانتقاء هو الذي أدى الى اختلاف الاشتراكية العلمية الناصرية عن الماركسية في النظرة الى الدين وفي أسلوب حل الصراع الطبقي وفي ديكتاتورية الطبقة وفي الملكية الفردية ، وانما نتج الاختلاف عن تطبيق المنهج والاسلوب العلمي على الواقع العربي المتميز قوميا عن الواقع الأوروبي الذي نشأت فيه الماركسية ، والذي يعيش في النصف الثاني من القرن العشرين . وهذا الاختلاف ينسجم مع ما أعلنه عبد الناصر من أنه لا بابوية في الاشتراكية أنطلاقا من طبيعة كل تجربة والواقع المحيط بها.
كذلك فان الناصرية كما اتضح من عرض فكرها هي ليست نظرية البرجوازية الصغيرة وانما الأدق انها نظرية تحالف قوى الشعب العاملة ضمن قومياتها . والناصرية بالمنظار القومي تتجاوز رقعة محدودة من أرض مصر لتشمل الوطن العربي كله. ولقد أوضح عبد الناصر بجلاء:
"ان الاشتراكية لا تبنى من مواقع التجزئة.... "
كما أن الناصرية بمنظار عالمي كوكبي وفي كلياتها الفكرية نظرية لثورات العالم الثالث التي هي المرحلة الثالثة من مراحل الثورة في العالم على مدى قرنين . فلقد كانت الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ التي مثلت بداية المرحلة الأولى -تعبيرا عن نظرية البرجوازية وثورة العالم الرأسمالي .. وهي ثورة قومية طبقية . وجاءت الثورة الروسية عأم ١٩١٧ التي مثلت بداية المرحلة الثانية تعبيرا عن النظرية الماركسية وثورة البروليتاريا -من اجل الشيوعية... وهي ثورة أممية لا قومية ولا طبقية . واخيرا تفجرت ثورة ٢٣ يوليو الثورة العربية النواة عام ١٩٥٢ لتكون بداية المرحلة الثالثة وتعبيرا عن النظرية الناصرية، نظرية تحالف قوى الشعب العاملة ضمن قومياتها.. وهي ثورة قومية طبقية . وهكذا كما يقول جمال حمدان بالمنطق الجدلي " اذا كانت الثورة الفرنسية هي التقرير اليميني المتطرف ، فإن الثورة السوفيتية هي النقيض اليساري المطلق ، بينما تأتي الثورة المصرية (العربية) كالتركيب المعتدل الأوسط.(53) "
وبعد..
فالحق أن النظرة الشاملة لتراث عبد الناصر ترينا- كما سبق أن ذكرنا- أنه اذا كانت الناصرية- التجربة العربية الثورية- قد بدأت بنظرات ومبادىء محددة حول امور عدة ، فانها من خلال الممارسة- وبكل ما في الممارسة من فكر وتجربة -سارت سيرا حثيثا نحو بلورة النظرية العربية الثورية. وهي نظرية لها موقفها من الانسان والمجتمع وحركة التاريخ ، تستهدف سعادة الانسان وكرامته وتنطلق من الايمان بالقيم الروحية وبالانسان كأثمن وأغلى موجود خلقه الله وكرمه . وتؤمن بمبادىء القومية والاشتراكية والديموقراطية والعقلانية العلمية : وما يتصل بهذه المبادىء من سنن الفروع القومي والصراع الطبقي والكفاح من اجل المساواة واكتشاف آفاق العقل والعلم.
ولقد فارق عبد الناصر بعد ان وضع أساس النظرية المكين وخلّف تراثا غنيا من الفكر والتطبيق . وفارق عبد الناصر قبل ان يبلور نهائيا هده النظرية تاركا مسؤولية بلورتها النهائية وحمل رسالتها على كاهل الطلائع العربية . ونلاحظ ان محاولات جادة على هذا الطريق بدأت منذ سنوات خلال حياة عبد الناصر ونالت نصيبها من الاهتمام الفكري والمناقشة الجادة . وبقي ان يتابع هذا الجهد وتنهض الطلائع العربية بمسؤوليتها في بلورة النظرية وبناء التنظيم العربي الواحد المنطلق منها والمناضل على اساسها تعبيرا عن الثورة العربية الواحدة الشاملة لتحقيق اهداف النضال العربي وحمل رسالة العرب الحضارية الى العالم.

كان للثورة العربية بقيادة عبد الناصر دورها الكبير في صياغة وبلورة العالم الثالث ورسم الطريق الثالث- طريق الحياد الايجابي وعدم الانحياز، وفي النضال من أجل السلام القائم على العدل ، وفي الدعوة الى التعاون الدولي من اجل الرخاء.
ففي هذا المجال فهمت الثورة العربية الى حد كبير طبيعة الظروف التاريخية المحيطة به ا: وعاشت أبعاد عالمها وعصرها وحددت مكان الامة العربية في هذا العالم ، وتطلعت لقيام العرب بحمل رسالتهم الحضارية الى الانسانية جمعاء.
وهنا يبرز الدور العالمي للثورة العربية ولعبد الناصر. وهو الدور الذي مكن الثورة العربية من التأثير على الاحداث في المنطقة ، ومن دفع عجلة تحرير الشعوب في آسيا وافريقيا ودعم ثورة التحرير ، والمشاركة في رسم السياسات الدولية . وقدم هذا الدور عبد الناصر كواحد من قادة العالم في عصره ، فكان اول عربي يحتل هذه المكانة في العالم المعاصر.
**
اننا لكي نتعرف على هذا الانجاز الذي حققته الثورة العربية بقيادة عبد الناصر، ونحيط بدورها العالمي يجدر بنا أن نتفحص وضع العالم الذي عاشه عبد الناصر . فقد واجه " كما يقول هيكل " عالما تعتريه عمليات التطورات التاريخية التي كانت تتلاحق بسرعة محمومة بعد الحرب العالمية الثانية . كانت الامبراطوريات القديمة تتقوض وتتهاوى وكان الفرنسيون والبريطانيون الذين اقتسموا فيما بينهم- طويلا آسيا والشرق الاوسط ، ينسحبون من كل مكان ، ولم يعد في وسع السلطات الاستعمارية القديمة ان تحكم كما كانت تفعل من قبل . فقد اجتاحت موجة القومية والأيديولوجيات الجديدة الشعوب التي عانت طويلا من الاستعباد. فكانت هذه الحقبة التي عاشها عبد الناصر فترة صراع وغليان " (٥٤).
ان هذا العالم هو عالمنا المعاصر.. عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية. وكانت هذه الحرب مع ما انطوت عليه من ماس وفواجع تنطوي في تضاعيفها على ثورة ضخمة ، هي عند البعض اكبر ثورة عرفها الانسان منذ فجر تاريخه. " فكأضخم الظواهر الطبيعية التي تدك الجبال وتطمر البحار وتطمس الحضارات ، كذلك كانت فترة السنوات الخمس التي أمتدت من ١٩٣٩ الى ١٩٤٥. تبدل في الروح والفكر والطموح اكثر منه في المادة والمظاهر. فعل في العمق حمل الى العالم تغييرات اساسية اشتركت فيها قوى مختلفة وارتفعت حولها اصوات مجلجلة. فكان ميثاق الاطلسي ، وكانت تطلعات البلدان المستعمرة الى التحرر، والاقطار المتخلفة الى العمران والازدهار. كا نت اذن ارادة التحول والتغيير التي جعلت من العالم ما هو عليه اليوم من غليان لن يستقر الا عندما تبلغ تلك الارادة ما نشدته في سبيل سعادة الانسان في كل مكان " (٥٥ .)
كانت ابرز سمات هذا العالم هو ما شهده من تفجرات . حتى وصف هذا العصر الذي بدأ بتفجير القنبلتين الذريتين الاميركيتين في اغسطس1945 على هيروشيما ونجازاكي المدينتين اليابانيتين : بأنه عصر متفجر. فقد شهد تفجير العلم والمعرفة بصورة لم يعرفها الانسان قبلا . وشهد تفجر السكان الذي جاء في أكثره نتيجة لسابقه. وشهد تفجر الحاجات والآمال والمطامح والنقمة المتصاعدة على الظلم والعوز والمرض والجهل وشتى صنوف العبودية والشقاء (٥٦).
وحين ننظر بمنظار السياسة والجغرافية السياسية نجد أنه اجتمع في هذا العالم ا نقلابان حافلان مذهلان هما ثورة التحرير والانقلاب النووي . ثوّر الاول- كما يقول جمال حمدان- المناخ السياسي في العالم برمته ، وقلب الثاني قوانين الاستراتيجية الكوكبية رأسا على عقب.(57)
وتصدرت عالمنا المعاصر دولتان كبيرتان هما الولايات المتحدة الاميركية والاتحاد السوفيتي بعد أن أنهكت الحرب بريطانيا وفرنسا وبقية دول أوروبا الاستعمارية . وبرزت هاتان الدولتان كقوى جديدة. وكان العالم قد شهد قبلها منذ بدايات الاستعمار الغربي في عصر الكشوف الجغرافية ثلاث قوى استعمارية- حسب تصنيف جمال حمدان- توضح- منحنى التطور الاستعماري . فثمة أولا جاءت " القوى العتيقة " في أوائل عصر الكشوف وتمثلت بالبرتغال واسبانيا والى حد ما هولندا . ثم تلت ذلك " القوى العتيدة " التي كانت اكبر قوى استعمارية ظهرت في التاريخ الحديث ومثلت انموذج الاستعمار بكل ما فيه من استغلال ورجعية واحتكارات ، وقد شملت هذه القوى بريطانيا وفرنسا . ثم ظهرت في " القوى الوليدة " التي تأخر توحيدها وتأخر فيها بدء الانقلاب الصناعي ومن ثم تأخر خروجها الى ميدان الاستعمار، ويندرج ضمنها المانيا وايطاليا والى حد ما بلجيكا وفي معنى خاص اليابان . واخيرا برزت " القوى الجديدة " بعد الحرب الثانية متمثلة بالولايات المتحدة والاتحادالسوفيتي " ولم تكن قد مارست الاستعمار بشكله التقليدي بل هي تنكر صلتها بالاستعمار وتستنكره . ومع ذلك ف! هي متهمة من غيرها بأشكال خاصة من الاستعمار اما الاقتصادي واما الايديولوجي " (٥٨ .)
وضحت ثورة التحرير خلال الحرب العالمية الثانية . وكان الاستعمار المباشر يغطي آنذاك ٣٥ %من مساحة العالم فهوت رقعة الاستعمار بين عامي ١٩٤٥- ١٩٦٥ الى ٤% . وهكذا مثلت ثورة التحرير عصر ذوبان الاستعمار ونهاية أوروبة العالم . وتتالت في هذه الثورة التي ظهرت بدايتها في لبنان وسوريا عام ١٩٤٣: ثلاث موجات زمنية هي الموجة الاسيوية والموجة العربية والموجة الافريقية. وأصبح التحرير هو

ايديولوجية الشعوب التي طال كبتها وروح العصر . وكان وراء هذه الروح عاملان رئيسيان هما آلية نمو المستعمرات حيث أن الاستعمار سلاح ذو حدين ، يفرض التحضير من أجل الاستغلال ، وانتهاء احتكار القوة العالمية في يد قوى أوروبا الاستعمارية، فرغم ان الاستعمار كان يمثل نظاما واحدا في النهاية فقد كان يجيش بالصراعات الداخلية والتوترات الكامنة التي لم تزل تصدعه وتمزقه (٥٩).
وكان طبيعيا أن يحتدم الصراع في عالمنا المعاصر بين ثورة التحرير و الدول التي تحررت من جهة وبين قوى الاستعمار القديم والجديد من جهة اخرى . كما كان متوقعا أن يحتدم الصراع بين القوى الجديدة نفسها بعد انتهاء الحرب التي فرضت عليها أن تتحالف . وهكذا شهد عالمنا المعاصر هذين النوعين من الصراع . وكان على الدول المستقلة حديثا وهي تبحث لها عن مكان في العالم ان تشق لنفسها وسط هذين النوعين من الصراع طريقا خاصا يصل بها إلى مكانها.
**
وحين تفجرت الثورة العربية النواة يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢ كان الصراع بنوعيه على أشده في العالم. وكانت احداث الثورة في الصين والحرب في كوريا والهند الصينية والحرب الباردة في برلين تجسيدا له. كما كان الصراع بنوعيه على أشده في منطقة الوطن العربي التي حلت بها نكبة فلسطين عام ١٩٤٨ واستجابت للنكبة بتزايد التحرك الجماهيري فيها والتي تضاعفت اهميتها بعد اكتشاف النفط بكميات كبيرة فيها ازداد بالتالي تكالب المصالح الاستعمارية عليها.
ولقد كان طبيعيا أن تنشغل ثورة ٢٣ يوليو العربية أول ما تنشغل بمصر ثم بالوطن العربي، قبل أن تنطلق كثورة عربية للقيام بدورها العالمي . وهكذا سرعان ما دخلت خضم هذا الصراع على أرضها من اجل استكمال تحرير الوطن وطرد قوى الاستعمار القديم ثم من اجل الحفاظ على الاستقلال وتثبيته وعدم الوقوع في براثن سيطرة قوى الاستعمار الجديد .
وأعلنت الثورة مبادئها الستة وباشرت نضالها لتحقيق المبدأ الاول وهو " القضاء على الاستعمار " واجلاء القوات البريطانية عن مصر . وقادها هذا النضال على أرض مصر الى خوض معركتها ضد الاحلاف والى تزعمها لهذه المعركة في الوطن العربي، كما سبق أن شرحنا. وسرعان ما أشعرها ذلك بضرورة التحرك على المستوى الدولي. وهكذا فاذا كانت معركة الجلاء قد أكدت لعبد الناصر أهمية التحرك على المستوى العربي ، فان معركة الاحلاف أوضحت له أهمية التحرك على المستوى الدولي.
وبدأت تباشير الدور العالمي للثورة في الظهور بعد قرابة ثلاث سنوات من تفجرها - حين جاءت مشاركة عبد الناصر في مؤتمر باندونج- ابريل ١٩٥٥ ، فكانت أول مشاركة فعالة للثورة على المستوى الدولي . ويبدو وكأنه كان لا بد من هذه الفترة كي تتضح لعبد الناصر من خلال التجربة والممارسة بعض ابعاد هذا الدور، والى حد ما طبيعته. كما كان لا بد منها كي تتهيأ لها الظروف المناسبة للتحرك.
ففي تلك الفترة وبينما كانت الثورة تركز اوضاعها داخليا وتتصدى لقضية الجلاء تعرضت من خلال هذا التصدي لمحاولة فرض دخول مصر الاحلاف الغربية تحقيقا لسياسة الغرب التي تحمل اسم " الدفاع عن الشرق الاوسط " وازدادت وعيا لطبيعة الخطر الاسرائيلي ودور اسرائيل في المنطقة كما تحدده السياسة الاستعمارية. واصطدمت بشكل حاد بقضية التسليح واحتكارات الغرب للسلاح وتحكمه من خلاله في سياسة دول المنطقة . وخاضت تجربة التعامل على الخصوص مع الولايات المتحدة الاميركية، وخرجت منها بمعرفة انضج لطبيعة السياسة الاميركية في المنطقة وبرفض محاولات هذه السياسة لاستيعاب الثورة والهيمنة عليها . ونشير بايجاز في هذا المجال الى ما فصلناه في فصل سابق عن مفاوضات الجلاء والخلاف الشديد فيها حول ارتباط مصر بحلف أو معاهدة للدفاع المشترك والوصول الى نص في الاتفاقية انه في حالة وقوع هجوم مسلح من دولة اجنبية على تركيا او اي من الدول العربية فان مصر تساعد بريطانيا على تهيئة القاعدة الحربية وادارتها. كما نشير الى تحديد عبد الناصر لهدف عدم الارتباط بأي حلف أو معاهدة للدفاع المشترك .
ولقد كشفت المفاوضات وزيارة دالاس وزير خارجية ! الولايات المتحدة لمصر ومباحثاته مع عبد الناصر وزيارة ايدن في فبراير ١٩٥٥ لمصر ومباحثاته وهو آنذاك وزير خارجية بريطانيا، كشفت جميعا نظرة الغرب الى دور اسرائيل في المنطقة وكشفت محاولات الغرب وخاصة الولايات المتحدة ترتيب صلح بين العرب والاسرائيليين ينسجم مع هذا الدور. كذلك اوضحت سياسة اسرائيل خلال تلك الفترة طبيعتها العدوانية وأطماعها التوسعية في المنطقة وتطلعها الى التسلط بمنطق القوة . وحين بحثت الثورة عن السلاح لمجابهة خطر اسرائيل وطرحت على الغرب قضية تسليح مصر أصطدمت بالخداع الاميركي وبسياسة الغرب في احتكار السلاح، وعادت بعثة السلاح المصرية برئاسة علي صبري من الولايات المتحدة بمرارات وبخفي حنين دون أن تصل لشيء . وغيرت تجربة التعامل مع الولايات المتحدة من نظرة الثورة اليها، فبعد أن كانت في بادىء الأمر نظرة قائمة على الآمال وعلى الصورة المزوقة التي كانت مرسومة للولايات المتحدة في المنطقة اصبحت نظرة قائمة على حقائق الواقع وعلى فهم طبيعة السياسة الامريكية (٦٠).
كذلك فان تلك الفترة بما حفلت من مواقف للثورة في مواجهة السياسة الاستعمارية خلال خوضها معركتي الجلاء والاحلاف مكنت دول المعسكر الاشتراكي والدول المستقلة حديثا من تكرين فكرة أقرب الى الصحة عن

حقيقتها. وكانت دول المعسكر الاشتراكي عند بداية الثورة شديدة الارتياب في زعماء الثورة وفي طبيعتها . وقد حمل عليهم الاتحاد السوفيتي ناعتا اياهم بالفاشية . كذلك اتسم موقف بعض الدول المستقلة حديثا من الثورة بالتحفظ في بادىء الامر بل وبرزت في الوطن العربي بين القوى السياسية خلال العامين الاولين للثورة تساؤلات واتهامات غذتها الاحداث الداخلية التي شهدتها مصر آنذاك . ولكن الموقف تغير على كل هذه المستويات بعد خوض الثورة لمعركتي الجلاء والاحلاف. وحين التقى شواين لاي بعبد الناصر مرة في رانجون قبل انعقاد مؤتمر باندونج قال له شواين لاي " انه يعرف ان عند الروس فكرة حسنة عن الحكومة المصرية " (٦١).

قلنا ان مشاركة عبد الناصر في مؤتمر باندونج كانت أول مشاركة فعالة للثورة العربية علىالمستوى الدولي . والحق ان مؤتمر باندونج نفسه كان أول مشاركة للدول المستقلة حديثا في رسم السياسة الدولية ، وأول خروج على تحكم الغرب وانفراده بالهيمنة على العالم منذ بدأت المؤتمرات الدولية في العصر الحديث. فلأول مرة يتولى مسؤولون افريقيون وآسيويون مناقشة مواضيع تهم شعوبهم والعالم بوجه عام- كما علق آنذاك الكاتب الهندي بانيكار في صحيفتي فرانس اوبزرفاتور ونيشن- " بعد أن جرى العرف في الدبلوماسية الدولية حتى عام ١٩٤٦ أن تبحث شؤون آسيا في مؤتمر للدول الغربية. ويبدو ان الدول الغربية لم تتخل عن هذا التقليد ففي مؤتمر جينيف عن الهند الصينية حضرت فرنسا وانجلترا واميركا ، بينما لم تحضر بورما والهند واندونيسيا " (٦٢).)

وكانت الدعوة الى مؤتمر باندونج قد تبلورت بعد سنوات من محاولات الدول المستقلة حديثا ايجاد مكان لها على مائدة السياسة الدولية، والتصدي للاخطار الناجمة عن الصراع بنوعيه والتي تتهددها بصورة خاصه. ففي عام ١٩٤٩ جاءت دعوة نهرو لسفراء حكومات آسيا الى الاجتماع في نيودلهي لوضع حد لأعمال القوى البوليسية الهولندية في آسيا ، وأوضحت الدعوة المدى التاريخي لهذا الحشد الفريد لأمم آسيا الحرة واصدقائها . وتألف في هيئة الامم المتحدة فريق عربي آسيوي ضم أثنتي عشرة دولةآ تمرس خلال الحرب الكورية بالعمل الديبلوماسي وتطور مع الزمن الى فريق آسيوي- افريقي ساهم بتشكيل هيئات للتخطيط والتنفيذ. وفي عام ١٩٥٠ عقدت دول آسيا الحرة مؤتمرا في باغيو ركزوا فيه الانظار على مكافحة الاستعمار بصورة منظمة والسعي الى اقرار سلام دولي دائم يقوم على سياسة " عدم الانحياز " من شأنها اقامة منطقة سلام في آسيا الجنوبية، وهما الموضوعان اللذان بحثهما مؤتمر باندونج . وقويت هذه المحاولات في مواجهة سياسة الاحلاف الاميركية التي استهدفت تطويق الصين الشعبية بعد سيطرة ماو على الحكم عام ١٩٤٩ ، وأبرمت من أجل ذلك ميثاق جنوب شرق آسيا عام١.954 !

وكان الصراع بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي على أشده. وقد دخل المرحلة الثانية من مراحل توازن القوى التي تقوم على استراتيجية الغدر والردع الشامل بما تورثه من عواقب وخيمة على العالم أجمع . ذلك ان الانقلاب النووي قلب مفاهيم الاستراتيجية الدولية. وفي مرحلة التوازن الاولى والتي اعقبت الحرب واستمرت حتى الخمسينيات كانت الولايات المتحدة تنفرد وحدها با لسلاح الذري ولا يملك الاتحاد السوفيتي الا جهازا ضخما من الاسلحة التقليدية، فسادت في هذه المرحلة سياسة حافة الحرب والهاوية التي اشتهر بها دالاس . حتى اذا ما توصل الاتحاد السوفيتي للسلاح النووي وتحقق التوازن الذري الرهيب بين قطبي القوى الجديدة ساد مفهوم الهجوم المفاجىء واستراتيجية الغدر والردع الشامل وعاش العالم وعلى الخصوص الدول المستقلة حديثا في ظل شبح الحرب النووية التي لا تبقي ولا تذر.

وسط هذه الظروف وجه رجال كولومبو (٦٣) الدعوة الى ثلاثين دولة آسيوية وأفريقية من بينها الصين الشعبية للمشاركة في مؤتمر باندونج بهدف اقامة تعاون صادق بين أمم آسيا وافريقيا، وبحث المشاكل الاجتماعية والأقتصادية والثقافية والعلاقات بين الدول المشاركة، ودراسة المشاكل التى تمس سيادة شعوب القارتين وبحث مركز آسيا وافريقيا من عالم اليوم ودورهما في خدمة السلام والتعاون.

واستجابت مصر للدعوة ، وأعلن عبد الناصر باسم الثورة عزمه على المشاركة في باندونج على الرغم من محاولة دالاس اقناعه بعدم الذهاب - على حد ما أورده هيكل- الأمر الذي أغضب دالاس " حيث رأى فيه خذلانا وخيانة لحملته الصليبية ضد الشيوعية " (٦٤) . ورأى فيه أيضا خروجا من ثورة ٢٣ يوليو عن الدائرة التي حاولت اميركا حصرها فيها. وكان عبد الناصر مستشعرا اهمية الصلة بين ثورة ٢٣ يوليو وشعوب آسيا وافريقيا. وقد شرح افكاره حول هذه الصلة في فلسفة الثورة وهو يناقش عنصر المكان ويتساءل " ما هو دورنا الايجابي في هذا العالم المضطرب ، وأين هو المكان الذي يجب ان نقوم فيه بهذا الدور " . فخصص الدائرة الثانية لافريقيا " التي يحرس العرب بابها الشمالي والتي هي مسرح لفوران عجيب مثير ". كما خصص الدائرة الثالثة للعالم الاسلامي " الذي يمتد عبر قارات ومحيطات والذي يضم اخوان العقيدة " في دول آسيوية عدة مع الوطن العربي وافريقيا (٦٥) . ونلاحظ انها كانت أفكارا أولية تعبر عن التوجه . وكان عبد الناصر أيضا قد استشرف بعد ذلك آفاق هدف باندونج وأبعاده العالمية من خلال حواره مع نهرو خلال لقائهما الاول بالقاهرة في فبراير ١٩٥٥ ! وقد هيأته معركة الاحلاف التي كان يخوضها لذلك . كما التقى في الشهر نفسه بتيتو لقاءهما الأول وتحدثا في ا لشؤون العالمية. ثم تلقى يوم ٢٨

فبراير صدمة عنيفة حين أغار الاسرائيليون على غزة وقتلوا ٣٨ جنديا مصريا وافتقد عبد الناصر بقوة توافر السلاح اللازم للرد واستشعر بمرارة خذلان أميركا له في تسليح مصر وتطلع يبحث عن مصدر آخر يكسر به احتكار الغرب للسلاح في المنطقة.
وفي طريقه الى باندونغ التقى عبد الناصر بشواين لاي في رانجون بعد ان تولى نهرو اتمام التعارف بينهما وتبادلا الحديث عن الشوون العالمية وعن قضايا بلدهما والمناطق المحيطة، ثم توصلا الى تفاهم حول طلب مصر السلاح من الاتحاد السوفيتي.
وفي باندونج شارك وفد مصر برئاسة عبد الناصر مع وفود ثماني دول عربية اخرى في اعمال المؤتمر. وهذه الدول هي سوريا ولبنان والعراق والاردن والسعودية واليمن وليبيا والسودان، وجميعها كانت مستقلة فشملتها الدعوة.
ونجح عبد الناصر- كما يقول هيكل- في اقناع الوفود العربية ان تتبنى مجتمعة في المؤتمر استراتيجية التمسك بقرارات الامم المتحدة في حل مشكلة فلسطين لكي يتمكنوا من تبرير استبعاد اسرائيل من المؤتمر (٦٦).
وطرح عبد الناصر على مؤتمر باندونج المبادىء الرئيسية لسياسة الثورة العربية في المجال الدولي. فالثورة العربية ستشن الحرب بكل ما لديها من طاقات ووسائل على الاستعمار والسيطرة الاجنبية .والثورة العربية ستعمل من أجل السلام لأن اجواءه وامكانياته توفر الفرصة الوحيدة للتقدم القومي. والثورة العربية ستسعى لتحقيق التعاون الدولي من أجل رخاء الشعوب كلها وتوفير الرفاهية لها. وبين عبد الناصر في خطابه ان السلم العالمي لا يتحقق الا بشروط محددة وتناول وهو يشرح هذه الشروط مجموعة قضايا هامة ابرز فيها دور هيئة الامم المتحدة ومسؤوليات الدول الكبرى ومستقبل التعاون بين الشعوب الآسيوية و الافريقية.
.."ان مصر وكافة الدول الممثلة في هذا المؤتمر وغير الممثلة سواء لتدرك تمام الادراك ويؤلمها أشد الألم ما تتكفله أعباء التسليح من نفقات وجهود توشك ان تقصم ظهر الاقتصاد العالمي وتعوق النهوض الاجتماعي. وتأمل بحماسة وحرارة وقف التسلح فورا ، حتى يفيق العالم من كابوس الفزع المريع الذي يقض مضجعه من جراء هذا التسليح.
وثمة علاقة وثيقة بين رفع مستوى معيشة الشعوب وخفض نفقات التسليح .. ولا شك في أن العلوم والخبرة الفنية الحديثة اذا استخدمت لاغراض سلمية، سوف تتيح للجنس البشري من الرفاهية قدرا لا يعادله أي قدر توفر في أي زمان ومكان . فالطاقة الذرية مثلا اذا استخدمت في اغراض سلمية تهيىء للشعوب ولا سيما في البلاد المتخلفة حيث يعيش السواد الأعظم في فاقة وعوز فرصا لا نظير لها للرخاء الاقتصادي..
..يجب أن تكون كافة القرارات والاجراءات التي تتخذها المنظمة العالمية أساسها الميثاق ولو روعي هذا لما نزل بشعب فلسطين ذلك الظلم البين ولما وقع عليه هذا الاعتداء الذي لم يسبق له مثيل...
..ان نظرية التفريق العنصري والسياسة التي قامت استنادا اليها ، نظرية باطلة علميا وتهدد السلم والأمن العالمي بالخطر كما انها تتنافى مع عزة الانسان وكرامته ..
..ان فرض الدول الكبيرة سياسة معينة لتحقيق مصالحها الخاصة له أثره الضار على الدول الصغيرة فهو يعزلها ويفرق فيما بينها. كما يضعف الروابط والتعاون الذي قد يكون قائما بينها. وبذا تقع السيطرة الاجنبية. وان دل على الدول الصغيرة ان تقوم بدورها الانشائي في سبيل تحسين العلاقات الدولية وتخفيف حدة التوتر الدولي.
..ثمة شيء آخر هو موضوع تصفية الاستعمار التي طالما كان سببا في الاحتكاك بين الدول وما يستتبعه من قلق..
ولقد شاهدنا منذ سنين وما زلنا نشاهد ارتفاع موجة القومية لا في بلادنا والمناطق المجاورة لها فحسب بل في عدة اقطار آسيوية وافريقية. ولقد علمتنا تجارب الحياة ان القومية اذا احبطت ترتبت عليها عواقب وخيمة ونشأت عنها مشاكل عويصة، وان الدول اذا تناولتها في حكمة وهوادة وواقعية اثمرت ثمرا طيبا من الصداقة والتفاهم والمحبة. وانا لنرجو ان نضع ذلك دائما نصب أعيننا بشأن بقية بلاد العالم التي ما زالت شعوبها متعطشة الى ارواء قوميتها..
وأراني في غير حاجة الى القول بأننا نعيش الان في عصر جديد يختلف عن العصور الماضية، فلقد استيقظ في الشعوب وعي جديد لا يمكن معه وقف تيار القومية و النهوض..
ان التعاون بين الشعوب الآسيوية والافريقية ليس عاملا على تخفيف حدة التوتر الدولي القائم فحسب ، بل هو تعاون تلك الدول- التي تمثل أكبر قارتين وسكانها أكثر من نصف سكان العالم- على التقدم وتحقيق مستوى معيشة أرفع . وتحقيق هذا الغرض لازم كما لا يخفى لهدف ثان هو السلم العالمي، فليس معنى السلم مجرد لا حرب بل انه يستوجب جهودا متضافرة متواصلة لتهيئة جو من الاستقرار السياسي والنمو الاقتصادي والعدالة الاجتماعية وكلها مقومات لاغنى عنها لانشاء مجتمع عالمي سليم. " ..
أكد هذا الطرح الذي طرحه عبد الناصر في باندونج تصميم مصر الثورة على استقلالها في علاقاتها الدولية وتطلع الثورة العربية للقيام بدورها في عالمها ، وهنا تكمن اهميته . فلأول مرة في تاريخ العرب الحديث -

كما يقول كرانجيا- " وقف زعيم عربي معتزا بقوته ليعلن استقلال بلاده والدور الذي يحق لها أن تؤديه على صفحات التاريخ " (٦٧ . (وحين عاد عبد الناصر ابرز هذا التصميم في خطابه للجماهير التي كانت في استقباله.

"ان مصر اليوم قد استقلت ، وانها حين تتكلم ، فهي تتكلم عن ارادتها وبوحي من ضميرها انني لم اترك هذا الوطن ولم اغادره الا من اجل تحقيق اهدافكم وتثبيت مبادئكم واشعار العالم أجمع ان مصر اليوم لها كيان مستقل وشخصية مستقلة وانها حينما تتصرف من وحي هذا الاستقلال انما تنصرف من الداخل وهي كاملة الاستقلال . وفي الخارج ، وهي تشعر أيضا انها كاملة الاستقلال .

لقد ذهبت لأعلن باسمكم ان مصر بعد ان ذاقت طعم الحرية ستعلن رأيها مستقلا في سبيل الحق وفي سبيل الحرية وفي سبيل تحرير الشعوب والانسان."

هكذا برز التصميم على استقلال مصر في باندونغ ليعلن انتهاء مرحلة في توجه الثورة الدولي وبداية مرحلة جديدة. فبعد ان كانت مصر الثورة في المرحلة الاولى وهي تسعى للتحرر منشغلة في المقام الاول باجراء حوار مع الولايات المتحدة الاميركية على اكثر من مستوى على أمل تحقيق مطالبها ، وتصارع خلال ذلك بقوة محاولات الاستيعاب الاميركية ، اذا بمصر الثورة في هذه المرحلة الجديدة تنطلق الى الافاق الدولية الرحبة وتكسر الحصار الاميركي وتعلن للعالم استقلالها وتوجهها للمساهمة في حل المشاكل الدولية. وهكذا بدأ البعد الدولي للثورة في التبلور منذ تاريخ باندونج حيث شاركت في صياغة مبادىء باندونج العشرة. ويهمنا ما دمنا في مجال الحديث عن بلورة فكرة العالم الثالث ان نثبت هذه المبادىء التي أصبحت مصدر وحي لتحركات دول العالم الثالث في إلميدان الدولي ، والتي عززت ميثاق الامم المتحدة ومثلت معه تراثا مشتركا بين جميع الشعوب على اختلاف اوضاعها وفي سبيل مصلحتها المشتركة. فمبادىء باندونج العشرة تنص على:

-1احترام الحقوق الاساسية للانسان وفقا لأهداف ومبادىء ميثاق الامم المتحدة.

-2الاعتراف بالمساواة بين جميع الاجناس والامم.

-3احترام سيادة وسلامة اراضي جميع الامم.

-4عدم التدخل في الشؤون الداخليه للبلدان الاخرى.

-5احترام حق كل امة في الدفاع عن نفسها منفردة أو جماعيا وفقا لميثاق الامم المتحدة.

-6أ- رفض الاتفاقات الدفاعية الجماعية المعقودة بأي شكل وضعت فيه لخدمة المصالح الخاصة للدول ا لكبرى.

ب- رفض أي ضغط تمارسه قوة دولية أيا كانت ضد الاخرين.

-7الامتناع عن القيام بأعمال او تهديدات بالاعتداء أو باستعمال القوة ضد سلامة أراضي بلد واستقلاله السياسي.

-8تسوية جميع النزاعات الدولية بالوسائل السلمية كالمفاوضات والتوفيق والتحكيم والاحتكام الى المحاكم الدولية وكل وسيلة سلمية تختارها البلدان المعنية وفقا لميثاق الامم المتحدة.

-9تشجيع تبادل المصالح والتعاون.

-10احترام العدالة والالتزامات الدولية.

ولقد تحدث عبد الناصر عن انطلاق الثورة العربية الى الآفاق الدولية بعد باندونغ وربط بين هذا الانطلاق وبين نضال الثورة قوميا فقال في عيد الثورة عام:1957

.."كتب علينا ان ندخل معركة رابعة في حرب تثبيت الاستقلال هي معركة تحديد معالم شخصيتنا الدولية ورسم مسلكنا في هذا العالم الذي زرعوه بالمشاكل من حولنا.

كنا نريد أن نكون اقوياء في وطننا ندافع بكفاية عن حدوده وكنا نريد ان يكون ضميرنا الدولي يقظا يشارك في الدفاع عن سلام العالم.

لم نكن نريد ان نسمع ضربات التهديد تدق ابوابنا ولا نستطيع للخطر الداهم علينا دفعا ولا ردا وكذلك لم نكن نريد ان نرى نيران الفتنة تندلع في الارض من حولنا وتحرق غيرنا وتحرقنا معهم دون ان يكون لنا نصيب فعال يصدر في كل تصرفاته عن روح من عدم الانحياز تنشد العدل وتطلب السلام على أساسه.

وهكذا تشابكت معركتان في حرب تثبيت الاستقلال . الحصول على السلاح والاشتراك في مؤتمر باندونج الذي جمع دول أفريقيا وآسيا. "

وتمثل عبد الناصر مبادىء باندونج فتشبع بروح عدم الانحياز التي تنشد العدل وتطلب السلام على اساسه وحددت الثورة العربية مكانها في العالم ومعالم شخصيتها الدولية. وهكذا كانت باندونج بداية انطلاق الثورة العربية الى الافاق الدولية، فقد تحقق في المؤتمر تعريف الدول المستقلة حديثا في آسيا وافريقيا والعالم بالثورة العربية كما تحقق ايضا بروز عبدالناصر كزعيم لهذه الثورة وكواحد من زعماء هذا العالم الثالث الذي بدأ بالظهور ولقد سلطت الاضواء في باندونج على الزعيم الشاب الذي وصفه أحد الكتاب وصفا طريفا على الطريقة الغربية بقوله : " انه أقوى جاذبية من نجم سينمائي وأكثر رجولة من بطل رياضي " (٦٨)

والذي مثل في حقيقة الامر تفتح شباب العالم الثالث . واقام عبد الناصر في باندونج صلات واسعة مع رؤساء دول افريقيا وآسيا ستنمو وتتسع في السنوات التالية مع نمو واتساع دور الثورة العربية العالمي.
ودخلت الثورة العربية أثر با ندونج امتحانا في التطبيق العملي للمبادىء التي أعلنتها وخرجت من هذا الامتحان الذي امتد خمسة عشر شهرا وقد حققت نجاحا كبيرا يوم تأميم قناة السويس . وحفلت هذه الفترة بالاحداث الهامة على المستوى الدولي.
فقد بادر عبد الناصر حال عودته من باندونج الى الاتصال بالاتحاد السوفيتي لابرام صفقة السلاح التي تفاهم عليها مع شواين لاي . وتم ابرام الصفقة مع تشيكوسلوفاكيا في اغسطس من عام ١٩٥٥ واعلن عبد الناصر ذلك رسميا يوم ٢٧ سبتمبر في خطابه في معرض القوات المسلحة . ووقف حال تهرب انباء الصفقة- قبل اعلانه عنها- يجابه بقوة ضغوط الولايات المتحدة لحمله على التراجع . ذلك ان دالاس وقد رأى في الصفقة خروجا على سياسته الخاصة بالاحلاف وقفزا من الاتحاد السوفياتي فوق " الحزام الشمالي " الذي يضم دول حلف بغداد، اندفع الى الضغط على عبدالناصر، فأرسل هو واخوه الان دالاس مبعوثهما كيرمت روزفلت الى القاهرة في طلب ايقاف الصفقة وتهديد عبدالناصر ان لم يستجب ، بايقاف كل المساعدات الاميركية لمصر وايقاف التجارة وقطع العلاقات الدبلوماسية ومحاصرة مصر بحريا وكان قدوم هذا المبعوث هو الذي حدا بعبد الناصر لاعلان ابرام الصفقة رسميا قبل استقباله -كما يروي هيكل- ولم يلبث دالاس ان أوفد مبعوثا آخر هو جورج الن مساعد وزير الخارجية ولكن عبد الناصر صمد امام الضغوط وفشل المبعوثان في اثنائه عن عزمه. كما صمد أيضا بعد ذلك أمام محاول! ات الولايات المتحدة تطويقه بأساليب الترغيب حين فشلت الضغوط فلم ينجح روبرت اندرسون في زيارته للقاهرة عام ١٩٥٥ التي حمل فيها رسالة من ايزنهاور ضمن مساعي الديبلوماسية السرية لحل مشكلة فلسطين ولم تلاق عروض هربرت هوفر الابن مساعد وزير الخارجية على السفير المصري بواشنطن ما تضمنته من شروط قبولا في مصر (٦٩.(
وفي اثناء هذا الحوار الساخن مع الولايات المتحدة الاميركية اعلن عبد الناصر في مايو ١٩٥٦ اعترافه بالصين الشعبية. وأيا كان السبب المباشر الذي حدا به لهذا الاعلان (٧٠) فقد جاء تعبيرا عن روح باندونج وسياسة عدم الانحياز. وواضح آن فكرة الاعتراف سبقت الاعلان بفترة ونبتت في ذهن عبد الناصر منذ مباحثاته مع شواين لاي وكانت لها مبرراتها القوية والمتصلة بروح باندونج . وهكذا فان الاعتراف لم يأت مجرد رد فعل لحادثة بعينها وان ارتبط الاعلان بهذه الحادثة. وقد كان للاعلان صداه في الغرب- كما سبق ان فصلنا من قبل- واتخذت الولايات المتحدة اجراء انتقاميا ضد مصر بمنع اية معونة مالية لبناء السد العالي وتلتها بريطانيا والبنك الدولي . ورد عبد الناصر بتأميم قناة السويس في يوليو ١٩٥٦ وتصاعدت الاحداث في المنطقة.
وفي خضم هذه الاحداث الهامة اخذت فكرة العالم الثالث في النمو وشقت طريقها . وساهمت الثورة العربية من خلال مواقف عبدالناصر خلال تلك الفترة في ابراز الفكرة واخراجها الى حيز التطبيق العملي . والتقت الثورة العربية في هذا الطريق الثالث بالهند ويوغوسلافيا وجسد عبد الناصر ونهرو وتيتو هذا اللقاء الذي فرضته الظروف المحيطة بدولهم.
وكان عبدالناصر قد التقى بتيتو لقاءهما الثاني في ديسمبر ١٩٥٥حين زار تيتو القاهرة وصدر عن هذا اللقاء بيان مشترك اعلن تمسكهما بسياسة الحياد الايجابي وعدم الانحياز ودعوتهما الى التعايش السلمي. وقد اوضحت المباحثات التي جرت بين الزعيمين ان عدم الانحياز هو الفكرة التي يمكن ان ينطلقا منها لتحديد مكان بلديهما من الصراع العالمي . وكان تيتو يدرك جيدا موقع يوغوسلافيا من الصراع بين الدولتين الكبيرتين ويؤمن بأن عدم الانحياز هو الاساس الحقيقي لاستقلال بلاده وسلامتها . كما كان عبد الناصر منطلقا من سعيه للحفاظ على استقلال مصر ووحدة الوطن العربي يبحث عن مخرج يبعده عن النزاع بين الكتلتين ويخلصه من ضغوط الغرب دون الوقوع تحت نفوذ الشرق فوجد فكرة عدم الانحياز المخرج والسبيل .
و في يوليو ١٩٥٦ التقى عبد الناصر وتيتو ومعهما نهرو، لقاءهم التاريخي في بريوني . وكان نهرو يؤمن هو الآخر بعدم الانحياز كسياسة تتبعها الهند في خضم صراع الكتلتين في آسيا وكفكرة تستقطب دول العالم الثالث . وقد صدر عن هذا اللقاء بيان مشترك أيد قرارات مؤتمر باندونج وعبر عن روح عدم الانحياز الذي كان الموضوع الأول في المباحثات و قدر للقاء بريوني أن يسبق مباشرة تصاعد الأحداث التي بدأت يوم ٢٠ يوليو بسحب الولايات المتحدة وبريطانيا عروضهما للمساهمة في تمويل السد وبلغت ذروتها بالعدوان الثلاثي على مصر. ومن الواضح ان اللقاء كان عاملا هاما في اتخاذ الموقف الاميركي من تمويل السد ، وقد سجل مرحلة جديدة في سياسة عدم الانحياز حيث اتخذت شكل منهج عام . وأصبحت القواعد التي وضعت في بريوني المؤلفة من اثني عشر بندا أساسا تعتمده دول عدم الانحياز في تسوية المشاكل العالمية . كما أرسى أقطاب بريوني مبدأ الاجتماعات الدورية ليبحث في المشكلات الدولية وبادروا الى الاتصال بزعماء العالم الثالث.
وخاضت الثورة العربية بقيادة عبد الناصر معركة تأميم قناة السويس وصمدت في مواجهة العدوان الثلاثي

وقدر لهذه الحرب أن تكون نقطة تحول في مجرى حركة التحرير بالنسبة للعالم الثالث . وأدى انتصار الثورة العربية على قوى العدوان الى توسع السياسة الجديدة التي تبنتها وأعلنتها في باندونج والى بروز عبد الناصر كواحد من أعظم قادة التحرير. وأصبحت الثورة العربية وعبد الناصر مصدر قوة روحية ومثلا يحتذى عند ثوار العالم.
وأكدت هذه المعركة لعبد الناصر أهمية عدم الانحياز فازداد تمسكا بالفكرة وكشفت له بالمحك العملي آفاق السياسة الدولية وابعاد مشكلاتها. وقد بدأ حديثه في الاحتفال بالذكرى الاولى للنصر في بورسعيد يوم الثالث والعشرين من ديسمبر ١٩٥٧ معبرا عن ذلك كله .
"اليوم في بورسعيد، نتجه الى العالم كله... ونطالب بتثبيت قواعد العدالة وحق المصير...
نتجه من بورسعيد للعالم كله ، ونطالب بأن تعطى كل دولة مستعمرة استقلالها لتحكم نفسها بنفسها... نطالب بالقضاء على التمييز العنصري في أفريقيا ، وأن يكون لأهل أفريقيا حق مساو لجميع السكان الموجودين في بلدهم ...
ومصر تطلب اليوم من العالم كله أن يعمل بكل طاقته من أجل دفع شبح الحرب... ننظر اليوم من بورسعيد للعالم ، ونجد ان المحاولات التي بذلت لاعطاء أسلحة ذرية للدول أكثر، ولتخزين الأسلحة الذرية في أوروبا ، وفي تركيا... نقول ان هذا يعتبر تهديدا لنا.
وان مصر- أيها الاخوة- برغم ما قاسيناه تتبع سياسة عدم الانحياز، سياسة الحياد الايجابي، لكي توسع معسكر السلام ... لأن العالم اذا انقسم الى معسكرين، وأصبحت دول العالم منقسمة، جزء منها مع هذا المعسكر وجزء مع المعسكر الآخر فلا بد أن تقوم حرب. ولا بد أن تقاسي البشرية الأهوال. "
وهكذا ارتفع صوت الثورة العربية مناديا بسياسة عدم الانحياز والحياد الايجابي من أجل السلام، ومعبرا عن رأيه في المشكلات ا لدولية ... التمييز العنصري ، وشبح الحرب ، وتهديد ا لذرة . وكان عبد الناصر قد ازداد استشعارا لأخطار الحرب النووية من خلال انشغال صديقه نهرو الشديد بهذه الأخطار. وقد تباحثا معا عند زيارة نهرو للقاهرة يوم ١٠ يوليو من ذلك العالم لتخفيف حدة التوتر الدولي وخفض التسليح وتحريم الأسلحة الذرية. كما ان نهرو لم يلبث ان ناشد العالم في نوفمبر ١٩٥٧ أن يستخدم الذرة للاغراض السلمية. وكان نداؤه مؤثرا وقد كتب لعبد الناصر وهو يرسل له النداء " اننا هنا في الهند، نعاني مشاكلنا الخاصة الكبرى كما انكم في مصر تواجهون الكثير من المصاعب . وفيما تشغلني مشاكلي مباشرة فإن ذهني يتجه بالتفكير بشكل متزايد الى المشكلة العظمى التي تواجه الانسانية " (٧١. (

وقد أبدى عبد الناصر تفهما وتجاوب مع الدعوة بالشكل الذي ظهرفي خطابه يوم عيد النصر، رابطا بين سياسة عدم الانحياز واستتباب السلام في العالم.
وغذت الثورة العربية السير في هذا الطريق الثالث . واستضافت القاهرة في مطلع عام ١٩٥٨ أول مؤتمر لشعوب التضامن الآسيوي الأفريقي الذي أعلن توصياته بوجوب دعم التعايش السلمي وتأييد استقلال الشعوب وتأييد قرارات مؤتمر باندونج وحل المشاكل الدولية في نطاق الأمم المتحدة . و نبذ سياسة الحرب والاستعمار والأحلاف . وقوى مركز الثورة العربية في العالم بعد اعلان وحدة مصر وسوريا يوم ٢٢ فبراير ١٩٥٨ وقيام الجمهورية العربية المتحدة، فازداد تأثيرها في العالم الثالث وتعاظم دورها في الدعوة لعدم الانحياز. وتتالت الأحداث خلال تلك الفترة فأغنت تجربة الثورة العربية في هذا المجال . فقد تقدمت الجمهورية العربية المتحدة يوم ١٥ ابريل ١٩٥٨ الى مؤتمر اكرا الذي عقد تحت شعار " أفريقيا للأفريقيين " ، بثمانية اقتراحات تنحصر في وجوب تدعيم السلام والمطالبة بتطبيق مبادىء مؤتمر باندونج وقرارات مؤتمر القاهرة لتضامن الشعوب الأفريقية والآسيوية ، وتجاوب المؤتمر. وفي ٢٨ ابريل زار عبد الناصر الاتحاد السوفيتي لأول مرة.
وكانت هذه الزيارة مناسبة لكي يطرح عبد الناصر أفكاره حول سياسة عدم الانحياز الايجابي مع احدى الدولتين الكبيرتين . كما كانت الزيارة محكا لمدى امكانية التطبيق العملي لتلك السياسة . وقد جاءت بعد أن حدث التحول الأول في نظرة الاتحاد السوفيتي الى ثورة ٢٣ يوليو في مصر. ولسنا هنا- ونحن نركز حديثنا حول الجانب الفكري من المسيرة - في مجال تفصيل الحديث عن تطور العلاقات السوفيتية العربية ، ولذا نكتفي بالاشارة الى أن الاتحاد السوفيتي نظر بعين الشك والريبة لثورة ٢٣ يوليو حين قامت . ثم راقب مسيرتها خلال الاعوام الثلاثة الأولى وهي تناضل ضد الاستعمار والأحلاف فحدث في نظرته شيء من التحول . وزاد اهتمامه بها بعد الدور الذي قامت به في باندونج فأقدم ساسة الاتحاد السوفيتي على ابرام صفقة السلاح . وحدث التأميم ثم العدوان ووقف الاتحاد السوفيتي موقف التأييد لمصر دوليا فتهيأ مناخ أفضل للتعاون . وان بقيت سياسة ثورة ٢٣ يوليو القومية وعلى الخصوص في الموقف الواضح من الشيوعية والحزبين الشيوعيين في مصر وسوريا محل استياء الاتحاد السوفيتي.
ونلاحظ ونحن نستعرض ما جرى في هذه الزيارة ان عبد الناصر حرص أول ما حرص ضمن تطبيق سياسة عدم الانحياز أن يبدأها بتحديد واضح للموقع الذي يتحدث منه... فهو قادم يحمل تحية شعوب صديقة. .

"شعوب تعيش في منطقة هامة من العالم وتشعر- بحكم ما تفرضه عليها ظروف المكان الذي تعيش فيه مضافا اليها مشاعرها الذاتية المنبثقة من صميمها ان لها دورا تؤديه في سبيل صيانة الحرية والرخاء والسلام لجميع البشر."

وهو يعبر عن عرفان هذه الشعوب للاتحاد السوفيتي على ما أظهره من فهم ، ويتطلع الى تعاون مخلص

"انني واثق ان لقاءنا سوف يدعم فهمنا المشترك ، ومن ثم سوف ينمي مجالات تعاوننا. واني لواثق أيضا ان هذه الصداقة التي ربطت شعوبنا بشعوبكم ستقوم بدورها كاملا كطاقة انسانية هائلة ، وستوجه كل قواها للمساهمة في صيانة السلام لهذا الجنس البشري الذي ملأ الأرض من حوله بمعجزات العقل والاحساس ، ومع ذلك لم يستطع حتى الآن أن يوفر لنفسه حقا بدهيا بالنسبة لأي كائن حي ... ألا وهو حق الأمن " (٧٢ (.

ويفسر هذا الحرص تلك السياسة التي بدت في لقاء عبد الناصر الأول بخروشوف ازاء اشارة لخروشوف عن الشيوعيين في الجمهورية العربية المتحدة اعتبرها عبد الناصر تدخلا في الأمور الداخلية وطلب ايضاحا عنها ، وتبين ان خطأ الترجمة هو السبب.(73)

ولقد تحدث عبد الناصر في المباحثات والخطب التي ألقاها عن المواضيع المتصلة بسياسة عدم الانحياز والحياد الايجابي وأهمها المساعدات غير المشروطة من الدول الكبرى لدول آسيا وأفريقيا ومبادىء باندونج ووقف التجارب الذرية والعدوان الاسرائيلي . واكد عبد الناصر ان الصداقة مع الاتحاد السوفيتي انما تقع ضمن تلك السياسة.

"ان سياستنا حرة تنادي بالحياد الأيجابي وعدم الانحياز الى الأحلاف العدوانية وعدم قبول القواعد العسكرية والعمل من أجل التعايش السلمي والسلام.

ان الصداقة والتعاون بين حكومة الاتحاد السوفيتي وحكومة الجمهورية العربية المتحدة وشعب الاتحاد السوفيتي وشعب الجمهورية العربية المتحدة ستجعل منا دولة قوية تصد العدوان وتقف ضد أساليب الاستعما ر " (٧٤ . (

وحين رجع عبد الناصر من زيارته بدأ حرصه واضحا على تأكيد فكرة عدم الانحياز كأساس لسياسة الثورة العربية في الصراع الدولي . وبدا أيضا شعوره بأهمية خروج الثورة العربية الى العالم لتأخذ مكانها فيه .وقد اعتبر الزيارة دليلا على صحة هذه الوجهة التي سار فيها . ومما قاله في خطابه عقب عودته يوم ١٦ مايو ١٩٥٨ شارحا أهم ما خرج به.

"هناك بعض الناس في أرجاء الوطن العربي يعتقدون انه لا يمكن للشعوب العربية أن تستقل . هناك بعض الناس يؤمنون الا سبيل لنا الا اذا خضعنا لكتلة من الكتل . انهم يجهلون خصائص الشعوب العربية ويجهلون مقومات الشعوب العربية ويجهلون القوة التي تنبثق منكم والتي رأيتها اليوم تجابه الحصار وتجابه الدول الكبرى.

ان محادثاتي مع زعماء الاتحاد السوفيتي انما كانت تمثل المحادثات بين الشعب العربي الحر القوي والدول الصديقة التي لا تبغي شيئا.

اننا أيها الاخوة نحن العرب لأول مرة في تاريخنا الحديث نخرج الى العالم ونشعر بكياننا ونشعر بقوتنا ونشعر باستقلالنا ونشعر ان سياستنا تنبع من أرضنا وان دفاعنا ينبثق من منطقتنا ...

لقد أعلنا سياسة الحياد الايجابي وسياسة عدم الانحياز. وقد لقيت من قادة الاتحاد السوفيتي ومن الشعب السوفيتي كل تقدير وكل احترام لهذه السياسة."

زار عبد الناصر الاتحاد السوفيتي مرة ثانية بعد شهرين من زيارته الأولى حين تصاعدت الأحداث في المنطقة أثر ثورة ١٤ تموز بالعراق . كانت الأحداث قد بدأت في التوتر قبل ذلك على أرض لبنان. وبدا واضحا ان اميركا وبريطانيا على وشك التدخل المسلح في المنطقة. وهكذا قطع عبد الناصر رحلة العودة من يوغسلافيا وطار فجأة الى موسكو وعاد من هذه الزيارة بنتائج حسنة اجمالا عبرت عن مبدأ التعاون بين سياسة عدم الانحياز والاتحاد السوفيتي في مواجهة التدخل الاستعماري وكشفت عن حدود هذا التعاون ضمن معطيات الوضع الدولي . ولكن قدر للعلاقة بين الثورة العربية والاتحاد السوفيتي أن تمر بأزمة شديدة ولم تمض سنة على هذه الزيارة بفعل ما شهدته ساحة العراق من صراع بين الشيوعيين والقوميين وبفعل الوجهة التي سار فيها عبد الكريم قاسم . ولقد وضعت هذه الأزمة على المحك وتضمنت في تضاعيفها تفاصيل توضح نظرة الاتحاد السوفيتي الأيديولوجية الى القومية العربية والى عدم الانحياز وهي نظرة تجمع بين العداء والريبة، كما كشفت في مجملها عن ضرورة التعاون رغم كل الاختلافات التفصيلية على صعيد معاداة الاستعمار الغربي، وحيوية هذا التعاون للطرفي! ن "(٧٥ (

ولعل مما ساعد على الوصول الى هذه المحصلة حدة عداء الاستعمار الغربي للثورة العربية في منطقة الوطن العربي. وقد تجلى ذلك في نزول القوات الأميركية في لبنان والقوات البريطانية في الاردن يوم ١٥ يوليو ١٩٥٨، ثم في اعلان ايزنهاور بعد شهر مشروعه الذي يقضي بوضع قوة دولية في منطقة " الشرق الأوسط " باسم " قوة السلام " وبصفة دائمة. ونلاحظ ان الولايات المتحدة حاولت مرة أخرى حين استحكمت أزمة

العلاقات السوفيتية العربية عام ١٩٥٩ أن تنفذ الى الجمهورية العربية المتحدة فتقدمت الى عبد الناصر بعروض كبرى للمساعدة . ولكن عبد الناصر الذي آمن بالثورة العربية وبعدم الانحياز وقف متشبثا بسياسته المعادية للاستعمار، وشن حملات عنيفة على مبدأ ايزنهاور وعلى ما تضمنه من حديث عن الفراغ في المنطقة.

وتابعت الثورة العربية سيرها في طريق عدم الانحياز وقد زادتها التجربة تمسكا به. واهتمت اهتماما خاصا بأفريقيا التي كانت تموج بحركات التحرير. وقد قام تيتو في نهاية عام ١٩٥٨ برحلة الى أفريقيا مبشرا بالسلام وبمبدأ عدم الانحياز، ومثل بناء على طلب عبد الناصر الجمهورية العربية المتحدة فضلا عن تمثيله لبلده (٧٦).

وكان عبد الناصر يقول:

"ان عدم الانحياز ليس حالة ، انما تيار يستطيع كل من يحمل فكرته أن يمثله."

وفي ٣٠ يناير ١٩٥٩ وصل الى القاهرة آلاف من شباب آسيا وأفريقيا لحضور مؤتمر الشباب الآسيوي الإفريقي وتشبعوا بفكرة عدم الانحياز.

وقام عبد الناصر في ربيع عام ١٩٦٠ بزيارة رسمية الى الهند والباكستان في نطاق تدعيم سياسة عدم الانحياز وتحدث في برلمان الهند عن مدى ما تحقق في خمس سنوات مضت على انعقاد مؤتمر باندونج بفضل جهود التضامن الآسيوي الأفريقي وسياسة عدم الانحياز، سواء في نطاق هذا التضامن الذي كان يحاول أن يثبت وجوده فأكد اليوم حقيقته ، أو في نطاق أفريقيا ووقف التجارب الذرية والحرب الباردة ومحاولات فرض الأحلاف . وأعلن:

"والآن فان أعلام الحرية ترتفع في أفريقيا ، وشعوب هذه القارة المناضلة تحصل على استقلالها الوطني واحدا بعد الآخر."

وقد رجع من تلك الزيارة التي استقبلت بترحاب عظيم على الصعيدين الشعبي والرسمي ليتحدث باسهاب عن مدى ما عززت قناعته بالثورة العربية وعدم الانحياز .وتباحث بعد عودته مع الرئيس سوكارنو الذي زار القاهرة في ٢٣ ابريل ١٩٦٠ حول اشعاع باندونج وسياسة عدم الانحياز.

وفي صيف ذلك العام عبرت الثورة العربية عمليا عن سياستها في دعم حركات التحرير الافريقية حين نشبت أزمة الكونجو. وقد تحرك عبد الناصر بسرعة وعن ايمان في مواجهة المؤامرات الاستعمارية على الكونجو. وأعلن في رسالة لنكروما يوم ١٥ يوليو انه يضع طائرات الجمهورية العربية المتحدة تحت تصرف حكومة غانا الى الكونجو . كما أعلن في رسالة الى داج هامرشولد السكرتير العام للأمم المتحدة عن استعداد الجمهورية العربية المتحدة لتقديم كل ما يطلب منها لمساعدة شعب الكونجو.

وفي ١٢ أغسطس وافقت القاهرة على طلب همرشولد باشتراك كتيبة عربية في قوات الأمم المتحدة في الكونجو وطارت الكتيبة الى هناك بعد يومين . وتبنت الجمهورية العربية المتحدة وبقية دول عدم الانحياز موقفا واحدا قويا في الأمم المتحدة عند مناقشة الأزمة في مواجهة الاطماع الاستعمارية.

وقد شهد خريف ذلك العام حضور رؤساء دول كثيرة دورة الأمم المتحدة الخامسة عشرة. وترأس عبد الناصر وفد الجمهورية العربية المتحدة لتلك الدورة . وكان سفره مناسبة لالتقائه بكثير من الرؤساء والتباحث معهم في الامور الدولية. وهكذا اجتمع بتيتو وخروشوف ونكروما وبكاسترو وايزنهاور ونهرو والحسن وماكميلان . وألقى عبد الناصر خطابه في الجمعية العامة يوم 27 سبتمبر وناقش فيه قضايا هامة كثيرة . وقد جسدت هذه الرحلة أمرين أساسيين كان عبد الناصر يؤمن بهما في تحرك الثورة العربية عالميا . أولهما هو ايمانه بالمنظمة الدولية وبأن لها دورا هاما في التفاهم الدولي . وكان زعماء جميع دول عدم الانحياز يدركون أن الأمم المتحدة هي المكان الذي تستطيع فيه الدول الصغرى أن تؤدي دورها العالمي . وكانوا يعتقدون ان دول العالم سوف تجتمع في الامم المتحدة ، ويأملون أن ميثاقها سوف يكون شريعة العالم . والامر الآخر هو ايمانه بأهمية الاتصالات المباشرة بين روساء الدول وزعماء العالم " لان ذلك يمنح العلاقات الدولية نظرة انسانية تستطيع دائما أن تتلمس حتى في وسط الأزمات المحتدمة اسبابا للأتصال " (٧٧.)

تحدث عبد الناصر في خطابه بالجمعية العامة شارحا نظرة الثورة انعربية للأمم المتحدة التي يجب أن تكون للجميع وتفتح بابها للصين الشعبية، والتي هي مبادىء الميثاق وأحكامه. وتناول بالتفصيل أزمة الكونجو وما حدث من إستغلال الاستعمار للأمم المتحدة فيها وعرض قضية فلسطين وقضية الجزائر . وشرح نضال شعوب العالم الثالث لتحقيق الحرية الاقتصادية، وطرح تصوره لدور الأمم المتحدة في حمل رسالة دفع الحرية الاقتصادية جنبا الى جنب مع الحرية السياسية... وطالب بالقضاء على الأسلحة النووية وخفض ميزانيات التسليح وازالة القواعد العسكرية ووجه نداء الى ايزنهاور وخروشوف يدعوهما للاجتماع فورا من أجل السلام . وحضر عبد الناصر قبل انتهاء الرحلة مؤتمر لأقطاب الحياد مع نهرو و تيتو وسوكارنو ونكروما . ودعا هذا المؤتمر الدولتين الكبيرتين الى بحث المشاكل المعلقة بالمفاوضات. وكان ذلك تدخلا مباشرا في الشؤون الدولية الخارجية عن قضايا العالم الثالث أكدوا به مسؤوليتهم في الشؤون الدولية العامة.

كان لهذه الرحلة أهميتها في بلورة فكرة العالم الثالث من خلال الممارسة .وقد حققت الثورة العربية فيها نتائج هامة على الصعيد الدولي وأثبتت عمليا ان لها مكانها في العالم المعاصر. وهكذا استطاعت خلال سنوات خمس مضت على انطلاقتها الدولية في باندونج أن تقطع شوطا ليس بالقليل . ولقد تحدث عبد الناصر بعد عودته عما حققته الرحلة لجماهير الشعب ثم في مجلس الأمة. وخطابه هذا في مجلس الأمة كخطابه في الأمم المتحدة يعتبران من الوثائق الهامة في شرح النظرة الدولية للثورة العربية . ومما جاء في ختام خطابه بالأمم المتحدة:

"لقد بذلت جهدي حتى لا يطفي احساسنا الخاص بقضايانا المحلية على الاحتمالات الخطيرة في الموقف الدولي الآن . واذا كنت قد أشرت دون دخول في التفاصيل الى بعض هذه القضايا، فلقد قصرت تعرضي لها على الناحية التي تربطها عموما بالسلام وبالأمم المتحدة ومن الواضح على أي حال اننا نؤمن بأن خدمة السلام في مجاله العام هي في نفس الوقت خدمة لقضايانا.

كذلك فاننا نؤمن بأن سيادة الأمم المتحدة معناها سيادة المبادىء وغلبة القانون والعدل على أحلام الغزو و السيطرة.

بل اننا نؤمن ان جو السلام القائم على العدل هو خير جو يستطيع وطننا فيه أن يباشر تطوره وأن يفتح الطريق أمام آماله في تغيير أوضاعه واعادة صنع مجتمعه على أساس جديد...

وانكم تعلمون ان تيارا ثوريا وطنيا يجتاح الآن بلادنا ، بل اننا نقول ان وطننا يعيش الآن ثلاث ثورات في وقت واحد ... ثورة سياسية... وثورة اجتماعية... وثورة عربية ... واننا لنعلن اننا نؤمن بأمة عربية واحدة ..

واذا جاز لي أن أتقدم امامكم الأن بحلول لما يواجهنا من مشاكل فانني أجد خير ما يمكن أن أقدمه لكم هو صورة من تفكيرنا عندما كنا تسعا وعشرين دولة آسيوية وأفريقيه اجتمعت في باندونج وناقشت مشاكل العالم وقتها ، ومع الأسف أنها نفس المشاكل التي ما زالت تواجهنا اليوم مع بعض الاختلاف في التفاصيل.. اننا نقدمها هنا طريقا للسلام وطريقا للحرية وطريقا للرخاء للبشر كلهم على اختلاف أوطانهم وألوانهم وأديانهم بلا تفرقة أو تمييز."

وأعطت الثورة انعربية بعد رحلة عبد الناصر الى الأمم المتحدة اهتماما خاصا لأفريقيا التي كانت ترتفع فيها أعلام الحرية ، والتي كانت تخوض ضد الاستعمار معركة ضارية . فقدمت الثورة العربية ما تستطيع تقديمه لحركة التحرير الأفريقية، فضلا عن انشغالها المباشر بثورة الشعب العربي الجزائري التي كانت تمر آنذاك بفترة دقيقة . وكانت ثورة الجزائر كجزء من الثورة العربية تقدم المثل الذي يحتذى لشعوب القارة الأخرى . وقد نشط عبد الناصر في الشهرين الاخيرين من عام ١٩٦٠ أفريقيا وأعلن في ذكرى تفجر ثورة الجزائر ان مساندة الجمهورية العربية المتحدة لشعب الجزائر لا تقف عند حد. كما زار السودان يوم ١٥ نوفمبر وبعث برسائل حول ازمة الكونجو الى عدد من رؤساء الدول الآسيوية والأفريقية.

وضمن هذه الانطلاقة الأفريقية انعقد مؤتمر الدار البيضاء في يناير ١٩٦١ وحضرته ج . ع . م . وغانا وغينيا ومالي والمغرب والجزائر (الحكومة المؤقتة) . وأعلن المؤتمر " تصميم الدول المجتمعة على تحقيق النصر للحرية في القارة الأفريقية كلها، واقامة صرح وحدتها " وطالب عبد الناصر بحلول عملية لمشكلة الكونجو، كما أعلن ان الصحراء الكبرى لم تعد فاصلا بين دول أفريقيا . واعتبر المؤتمر ان اسرائيل قاعدة عدوانية استعمارية ضد الشعوب الأفريقية. واكدت دوله تصميمها على المحافظة على وحدتها في الرأي والعمل في الميدان الدولي وترسيخ أقدام هذه الوحدة وتعزيز السلام في العالم عن طريق تبني سياسة عدم الانحياز... ولقد حدد عبد الناصر طبيعة المرحلة التي تمر بها آلقارة في خطابه بالمؤتمر.

"لقد كان في فكري دائما انه اذا كان العام الذي مضى عام ١٩٦٠ -عام أعياد الاستقلال في أفريقيا فان هذا العام الذي بدأناه- عام ١٩٦١- يجب أن يكون عام حماية الاستقلال ودعم تعاوننا الأفريقي حتى لا نكتفي من الاستقلال بالعيد ... ولقد رأينا في السابق ان ما تصورناه عيدا للانتصار كان في واقع الأمر يوم الخطر الأكبر ".

والحق ان خطرا كبيرا كان يهدد حركة التحرر الأفريقية. وما أسرع أن نجح الاستعمار في تدبير جريمة اغتيال باتريس لومومبا في أعقاب مؤتمر الدار البيضاء . وقد وقفت الثورة العربية تندد بالجريمة وأعلن عبد الناصر يوم ١٣ فبراير أن جريمة اغتيال لومومبا سوف تؤذي الضمير الانساني كله . وسارعت الجمهورية العربية المتحدة الى الاعتراف بجيزنجا رئيسا لوزراء الكونجو. وخرجت القاهرة في جنازة شعبية من أجل لومومبا ، واستضافت أسرته للاقامة بها وطلبت أن يبحث مجلس الأمن مؤامرة تصفية استقلال الكونجو . وكتب عبد الناصر الى جون كيندي رسالته الأولى بمناسبة اغتيال لومومبا وضمنها مشاعره تجاه المأساة الاليمة وأفكاره حول أفريقيا وذلك ضمن سياسة الاتصال المباشر التي سار عليها . وقد حدد في الرسالة ثلاث عوامل تثير قلقه وهي الجريمة التي ارتكبت وما يمكن أن ينشأ عنها من أخطار والموقف العصيب الذي صارت اليه أعمال الأمم المتحدة في الكونجو، والصدمة التي تلقتها الشعوب الأفريقية المتطلعة الى أملها بعد ليل استعماري طويل . وطرح أفكارا محددة فيما ينبغي عمله دوليا.(78)

وفي نطاق الحشد لمجابهة هذا الخطر الكبير جاء افتتاح مؤتمر الشعوب الأفريقية في القاهرة يوم ٢٤ مارس . وقد قال عبد الناصر لوفود المؤتمر ان المعركة ضد الاستعمار مستمرة . وحدد خطآن وقع فيهما النضال الأفريقي وهما ، وهم استسلام الاستعمار وتفرق كلمة أفريقيا . وطالب بازالة القواعد العسكرية الأجنبية واستعادة الأراضي والمناجم الأفريقية.

وكانت الثورة العربية دائبة على تبني قضايا التحرر الأفريقي منذ أن تصدت لحمل مشعل الحرية في أفريقيا بعد باندونج . وقد جعلت من القاهرة المركز الأول للوطنيين الأفارقة ، فأسست فيها " الرابطة الافريقية " التي قامت بدور هام في مجال الكفاح السياسي لأبناء القارة المضطهدين والمنفيين من المناضلين ، وفي مجال الاعلام عن حركات التحرر. ودربت هذه الرابطة قيادات كان لها دورها في الكفاح في أوطانها .

وافتتحت في القاهرة مكاتب لحركات تحرير الكاميرون وأوغندا والصومال وجنوب أفريقيا واتحاد روديسيا ونياسلاند وكينيا وموزمبيق والنيجر ونيجيريا و تشاد وزنزبار. وخصصت القاهرة اذاعة وطنية موجهة " لأفريقيا الحرة " تذيع باللغات الصومالية والسواحلية والأمهرية والهوسا فضلا عن الانجليزية والفرنسية .

وأصبحت القاهرة مسرحا للقاءات ومؤتمرات ثورات أفريقيا . وقد عقد فيها خلال ستة شهور تمتد بين ديسمبر ١٩٦٥ ويونيو ١٩٦١ عدة مؤتمرات ساهمت على مستويات مختلفة في حركة تحرير القارة من بينها مؤتمرات " اجلوا عن أفريقيا " ومؤتمر نساء أفريقيا والمؤتمر الثالث لشعوب أفريقيا ومؤتمر تضامن شعوب أفريقيا وآسيا . وبلورت هذه المؤتمرات تو !صيات محدودة حول " خلق منظمة مشتركة لمساعدة حركات التحرر في أفريقيا، وضرورة القضاء على الاستعمار في أفريقيا بكل الوسائل الممكنة السلمية وغير السلمية والنظر الى الحكومات الاستعمارية في بلجيكا وفرنسا وبريطانيا وهولندا واسرائيل وجنوب أفريقيا والولايات المتحدة باعتبارها المخطط الأساسي لسياسة الاستعمار الجديد ." وفتحت القاهرة أبواب معاهدها وجامعاتها العلمية وكلياتها العسكرية أمام أبناء شعوب القاهرة فكان فيها عام١٩٦٠ أربعة آلاف طالب أفريقي وهو يماثل العدد الذي كان يدرس في فرنسا . وكان لهذا العدد أثره الهام في مجابهة الولاء الفكري للغرب بين كثيرين من المثقفين الأفريقيين الذيرا درسوا في أوروبا (٧٩ .)

وحققت هذه الجهود التي قدمتها الثورة العربية لحركة التحرر الأفريقي نتائج مباركة. وكان عام ١٩٦٠ علامة كبرى في تاريخ القارة . فالى ما قبله كان فيها عشر دول مستقلة فاستقلت خلاله سبع عشرة دولة جديدة . واعتبر ذلك العام عام افريقيا . وخلال السنوات العشر التي تلت عام ١٩٥٦ ظفرت اربع وثلاثون دولة افريقية بالاستقلال كما اوصلت هذه الجهود الى بناء منظمة الوحدة الافريقية عام ١٩٦٣ وسنصل للحديث عنها.

كان تصدي الثورة العربية لهذا الدور في افريقيا جزءا من سياسة عدم الانحياز والحياد الايجابي مارسته عمليا وأغنت به هذه السياسة . وقد تتالت احداث في ربيع ١٩٦١ اوصلت الى عقد أول مؤتمر للدول غير المنحازة . ففي ١٧ ابريل زار تيتو الجمهورية العربية المتحدة وتباحث مع عبد الناصر حول الشؤون الدولية. ونشبت خلال زيارته أزمة خليج الخنازير في كوبا ، فبعث عبد الناصر رسالة الى فيدل كاسترو يعلن فيها تأييد الجمهورية العربية المتحدة لكوبا ضد العدوان الاميركي . وقد تضمن البيان المشترك بين عبد الناصر وتيتو استنكار العدوان على كوبا ومنع استخدام القوة في حل المنازعات العالمية. وفي ٤ مايو بعث الرئيسان برسالة الى رؤساء الدول غير المنحازة يطالبان فيها بعقد اجتماع لرؤساء هذه الدول . وتلقت القاهرة رسائل من عدد من رؤساء الدول تتضمن الموافقة على الحضور وتباحث عبد الناصر في القاهرة يوم ١٦ مايو مع سيكوتوري وسوكارنو حول المؤتمر. وحين تلقى عبد الناصر رسالة من كينيدي تضمنت وجهة النظر الاميركية في أحداث كوبا رد عليه في ١٨ مايو برسالة مطولة حدد فيها عدم الانحياز كما تطرحه الثورة العربية.

"اننا في سياستنا الدولية نؤمن بعدم الانحياز. وليس عدم الانحياز من وجهة نظرنا سلبية وليس إنتهازية انما معناه بالنسبة الينا تحرير نظرتنا الى المشاكل الدولية من قيود الارتباطات غير الموضوعية وجعلها نظرة مستقلة تشارك ايجابيا في دعم السلام القائم على العدل وتبدي رأيها في كل مشكلة بوحي من هذا الاعتبار."

وافتتح الاجتماع التمهيدي لمؤتمر الدول غير المنحازة في القاهرة يوم ٥ يونيو وقرر دعوة اول مؤتمر لعدم الانحياز في بلغراد في سبتمبر ١٩٦١. ووقع عبد الناصر على الدعوة مع تيتو وسوكارنو. وحدد الاجتماع خمسة شروط ينبغي توافرها في الدول التي تريد الاشتراك في المؤتمر. وهذه الشروط هي أن تكون سياستها مستقلة مبنية على التعايش السلمي وعدم الانحياز، أو يكون اتجاهها وديا ازاء هذه السياسة. وان تكون مؤيدة لحركات التحرر الوطني . وأن لا تكون مشتركة في أي حلف عسكري جماعي يجعلها طرفا في الصدام بين الدول الكبرى . وأن لا تكون مشتركة في أي تحالف ثنائي مع دولة كبرى . وأن لا تكون قد سمحت لدولة أجنبية باقامة قواعد عسكرية في أراضيها.

وانعقد المؤتمر الاول للدول غير المنحازة في الاول من سبتمبر ببلغراد وحضرته اثنتان وثلاثون دولة على الرغم من ان " بعض الدول الكبرى لم يبق مكتوف اليدين " على حد تعبير تيتو في رسالة له لعبد الناصر قبيل المؤتمر. " فقد بدأوا يزاولون الضغط على كل رؤساء دول عدم الانحياز من أجل حملهم على عدم

حضور المؤتمر أو عدم ارسال ممثليهم اليه . على أن ذلك لا يمكن ان يقال بالنسبة الى معسكر من المعسكرين انما يمكن ان يقال بالنسبة اليهما معا. " وجاء انعقاد المؤتمر في جو احتدم فيه الصراع بين المعسكرين أثر فشل مغامرة اميركا في كوبا وفشل لقاء خروشوف وكينيدي في فيينا وتصعيد القتال في لاوس .وقد سلم السفير السوفيتي قبل يومين من الانعقاد رسالة شخصية من خروشوف جاء فيها ان الاتحاد السوفيتي سيستأنف اجراء التجارب على الاسلحة النووية وهو أمر يخالف ما تنادي به دول عدم الانحياز من وقف هذه التجارب (٨٠. (

وحدد عبد الناصر باسم الثورة العربية مفهوم عدم الانحياز في خطابه امام المؤتمر، وشرح دور الدول غير المنحازة في خدمة السلام القائم على العدل في العالم وفي تحرير الشعوب المستعمرة وتحقيق التعاون الدولى من أجل الرخاء.

"لا ينبغي أن يكون هناك ما يوحي من قريب أو بعيد بأن الدول الملتزمة بسياسة عدم الانحياز انما تصنع بنشاطها كتلة دولية ثالثة. اننا نعيش في عالم يعاني من الصراع بين كتلتين ولا نتصور ان تدخل العملية كتلة ثالثة تزيد من حدة هذا الصراع بدلا من أن تخفف وطأته.

ان ابرز ما يجمعنا هو التحرر من أي قيد سوى ما تفرضه المبادىء ورغبة كل منا بقدر طاقته أن يخدم هذه المبادىء. والحافز الذي جمعنا اليوم هنا بالذات هو الحافز الذي لا يمكن بغير توافره أن تتاح الحياة لأي مبدأ من المبادىء وأعني به حافز السلام . ولا توجد قوة قادرة على خدمة السلام مثل مجموعة الدول التي تتبع سياسة عدم الانحياز . فان هذه الدول التي تعيش مشاكل عالمها لا تنعزل عنها أو تنفصل، والتي لا تخضع في مواقفها من هذه المشاكل لضغط كتلة من الكتل تحدد لها مواقفها وترسم لها اتجاه خطاها والتي تصدر في كل ما تراه بشأن هذه المشاكل عن دافع السلام القائم على العدل بصرف النظر عن أي اعتبار آخر. هذه المجموعة من الدول أقدر على أن تضع في خدمة السلام بنزاهة وتجرد كل طاقاتها المادية والمعنوية وهي لذلك اقدر على الحركة الطليقة النزيهة المتجردة.

انه في جو السلام وحده نستطيع أن نطور الحياة في بلادنا وان نزيد خصوبتها الخلاقة- وفي جو السلام نستطيع ان نساعد شعوبا غيرنا كثيرة ما زالت ترسف في الاغلال."

وطرح عبد الناصر امام المؤتمر ستة اقتراحات يتعلق أولها بوضع خطة واضحة لدعم المفاوضات بين الكتلتين في محاولة لاذابة الجليد الفاصل بينهما . ويتعلق الاقتراح الثاني بتمكين الأمم المتحدة من أداء رسالتها. ثم تنص بقية الأقتراحات على اتاحة فرص التقدم أمام الشعوب التي لم تستكمل نموها الاقتصادي والاجتماعي وان تواصل دول عدم الانحياز جهودها من أجل السلام وأن تعمل على ضرورة تصفية الاستعمار وعلى تحريك كل القوى المستعدة للخير . وقد وافق المؤتمر على الاقتراح الأول وكلف أربعة أقطاب بحمل رسالتين الى خروشوف وكينيدي تطلبان اليهما ان يجتمعا ويتفاوضا من أجل السلام العالمي (٨١) . وقد حمل هذا الطلب معنى كبيرا ، فللمرة الاولى في التاريخ -كما قال نهرو آنذاك- تتقدم أقل الدول قوة بمطالب- ترقى الى مرتبة الأمر- لأكثر الدول قوة في العالم . ومع أن المبعوثين الاربعة لم ينجحوا في مهمتهم الا ان الموقف العنيد لدول عدم الانحياز حيال استئناف التجارب النووية ساعد على ابرام الاتفاق الجزئي على حظر التجارب النووية بين اميركا وروسيا.

عبد الناصر والثورة العربية ٧ - أحمد صدقي الدجاني**

والآن وبعد هذه المتابعة لبروز ونمو فكرة عدم الانحياز منذ باندونج حتى انعقاد المؤتمر الاول والتي تعرفنا فيها على دور الثورة العربية وعبد الناصر في بلورة الفكرة ودعمها.. نقف لنتعرف اكثر من خلال التحليل على الفكرة وأبعادها.

لقد تضمن البيان المشترك لمؤتمر بلغراد شرحا واضحا لفكرة عدم الانحياز. كما وجه البيان الختامي نداء الى الدولتين الكبيرتين اعتبر أبرز عمل من آعمال المؤتمر وأثبت دليل على أن دول عدم الانحياز لم تجتمع في تكتل ثالث يخاصم ويقاوم الكتلتين القائمتين .. وقد أبدى المؤتمر في هذا البيان الختامي قلقه من خطورة الحالة الدولية " بحيث أن أقل نزاع من شأنه ان يؤدي الى حرب افنائية ". وهذا يعني أن خطر الصدام بين الكتلتين يتهدد العالم . ورأى المؤتمر " أن خير علاج لتفادي مثل هذه الحرب هو أن توقف الولايات المتحدة وروسيا استعداداتهما الحربية... وتستأنفا مفاوضاتهما لتسوية المسائل وفقا لمبادىء ميثاق الامم المتحدة حتى تصلا الى نزع شامل للسلاح ". وأوضح المؤتمر " انه اذا كانت قرارات الحرب والسلام تتوقف على أمريكا وروسيا فان نتائجها تمس العالم بأسره . فمن المصلحة الدائمة لجميع الامم والشعوب أن يكون من شأن الوسائل والاعمال التي تعتمدها الدول الكبرى أن تمكن البشرية من السير قدما في طريقا السلام والازدهار لا إلى الابادة والدمار " . وعلى هذا فقد وجه المؤتمر النداء للدولتين وتمنى على جميع الدول في العالم ان توج! ه نداء مماثلا.

ونتابع شرح البيان المشترك لفكرة عدم الانحياز فنراه يقول:

"ان العالم الذي نعيش فيه يمتاز بوجود انظمة اجتماعية مختلفة. وترى الدول المشتركة في المؤتمر أن

الفوارق في الانظمة لا تعتبر عقبة يصعب تغييرها طلبا لاقرار السلام بشرط ان تحظر محاولات السيطرة والتدخل في شؤون الشعوب والأمم الاخرى.
وإنه يتوجب على جميع الشعوب والامم ان تحل مشاكلها الخاصة بأنظمتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية وفقا لأحوالها وامكاناتها . وكل محاولة لفرض نظام اجتماعي أو سياسي معين على الشعوب بالقوة ومن الخارج تعرض السلام العالمي للخطر المباشر.
وترى الدول المشتركة في المؤتمر إن مبادىء التعايش السلمي هي الطريق الواجب سلوكه ازاء الحرب الباردة وخطر وقوع كارثة نووية عامة . ونظرا الى ان تطور المجتمع البشري يكون دائما مصحوبا بعقائد مختلفة، فإن الدول المشتركة في المؤتمر ترى من واجب الشعوب والحكومات أن تمتنع عن استخدام العقائد لاثارة الحرب الباردة والالتجاء الى وسائل الضغط لفرض ارادتها.
ولا يتقدم رؤساء حكومات الدول غير المنحازة باقتراحات عملية لتسوية جميع الخلافات الدولية ولا سيما الخلافات بين الكتلتين . وهم يودون قبل كل شيء لفت الأنظار الى المشاكل الحالية لايجاد حل لها بشيء من الواقعية وتقدير للمسؤوليات .. ولا تسعى الدول غير المنحازة الممثلة في المؤتمرات الى انشاء كتلة جديدة ولا تستطيع تأليف كتلة. وكل ما ترغب فيه هو التعاون المخلص مع كل حكومة تحاول المساهمة في توطيد أركان الثقة واقرار السلام في العالم..
ويتابع البيان شرحه فيعارض مطامع الدول في ضم اراض دول اخرى ، ويؤكد على حق جميع الأمم في الوحدة وتقرير المصير وعلى حق الشعوب في التصرف بحرية بثرواتها وعلى ضرورة نزع السلاح وعلى وجوب بذل الجهود لازالة الاخلال في التوازن الاقتصادي " بمعالجة الفارق المتزايد بين مستوى المعيشة في الدول المتقدمة صناعيا والدول العديدة المتأخرة اقتصاديا " . واختتم البيان بأن جميع هذه المطالب في روحها ونصها تتفق مع المبادىء الانسانية التي نص عليها ميثاق الامم المتحدة " وبذلك تعتبر دول عدم الانحياز انها تمثل ما سوف يكون عليه العالم عندما تصبح الدول باختلاف عقائدها ومطامحها قادرة على تأمين مصالحها كجزء من مصالح المجموعة الدولية. "
ان هذا الشرح لفكرة الحياد الايجابي وعدم الانحياز يوضح انها كما عبر عنها اقطابها هي ضمير العالم وصمام أمنه . ولقد كان تيتو يقول " نحن ضمير العالم ولسنا عضلاته " ويقول عبد الناصر عن مفهوم عدم الانحياز:
"هو صيغة جديدة في العلاقات الدولية تمثل قوة الضمير في عالمنا الذي نعيش فيه."
وسياسة عدم الانحياز توحي من فكرته مجموعة المبادىء السياسية التي تسير عليها في علاقاتها الدولية البلدان التي لم تنضم لأي من الكتلتين . وهي تختلف عن سياسة التكتلات لانها ليست في خدمة فريق من الدول كوسيلة لتأمين مصالح مشتركة فيما بينها.
ان عدم الانحياز والحياد الايجابي هو ظاهرة سياسية معاصرة انبثقت في عالمنا المعاصر نتيجة لثورة التحرير والانقلاب النووي اللذين تميز بهما . فثورة التحرير أوجدت الدول المستقلة حديثا التي شكلت "العالم الثالث " والتي بحثت لها عن مكان في عالم اليوم . والانقلاب النووي غير متوازن الاستراتيجية الدولية وفرض على هذه الدول البحث عن حلول لأبعاد خطر الافناء عن العالم.
لقد " جمع العالم الثالث " اذن بين دول تعيش ظروفا متشابهة . فهي دول خرجت بثورة التحرير من الاستعمار القديم الذي كان لايزال يتسلط ويستعمر اقطارا مجاورة لها . وهي تستشعر منه الخطر عليها وعلى جيرانها فتعلن حربها ضده وتستشعر في الوقت نفسه خطر أكبر من الاستعمار الجديد وسط حرصها على حماية استقلالها الذي بذلت الكثير من أجله. وهي ترى نفسها قد تخلفت- بفعل عوامل عدة من بينها استنزاف الاستعمار لمواردها - عن ركب التقدم والعلم فتحاول ان تغذ السير في طريق التقدم. وفي محاولتها هذه عليها ان تحذر مناورات الاستعمار الجديد الذي يريد احتواءها بالمساعدات . وهي اخيرا تعيش في عالمها الذي يعاني من صراع الكتلتين ومن حرب باردة مستحكمة اعقبت الحرب العالمية الثانية، ويتهددها وسط هذه الحرب الخطر النووي وسعي كل من الكتلتين لربطها الى عجلتها.
هي اذن قضايا ثلاثة رسمت حدود " العالم الثالث " وبلورت فكرة عدم الانحياز والحياد الايجابي أولها قضية القضاء على الاستعمار وثانيها قضية السلام وابعاد الخطر الذي يتهدد العالم وثالثها قضية التقدم والتعايش الدولي من أجل الرخاء.
لقد تصدت الثورة العربية بقيادة عبد الناصر لهذه القضايا الثلاثة وحددت مواقفها منها فكرا وتطبيقا وفي عام ١٩٦٢ صدر الميثاق وتضمن شرحا لسياسة الجمهورية العربية المتحدة الخارجية التي جسدت هذه المواقف وعبرت عن فكرة الثورة العربية تجاه القضايا الدولية . ويقول الميثاق:
"والسياسة الخارجية لشعب الجمهورية العربية المتحدة انعكاس امين وصادق لعمله الوطني تمتد في ثلاثة خطوط حفرت مجراها عميقا ومستقيما بنضال شعب باسل صمد لكل انواع الضغط وانتصر عليها.
إن الخطوط الثلاثة العميقة في السياسة الخارجية للجمهورية العربية تعبيراً عن مبادئها هي الحرب ضد الاستعمار والسيطرة بكل الطاقات و الوسائل ، وكشفه في جميع اقنعته ومحاربته في كل اوكاره.

والعمل من اجل السلام لأن جو السلام واحتمالاته هو الفرصة الوحيدة الصالحة لرعاية التقدم الوطني.
ثم التعاون الدولي من اجل الرخاء ، فان الرخاء المشترك لجميع الشعوب لم يعد قابلا للتجزئة كما انه اصبح في حاجة الى التعاون الجماعي لتوفيره."
ويشرح الميثاق كلا من هذه الخطوط بادئا بالحرب ضد الاستعمار فيحكي نضال الشعب العربي في هذا المجال منذ ان جوبه بالاستعمار حتى انتصاره على العدوان الثلاثي . ثم يتحدث عن الحاضر والمستقبل .
"ان الاستعمار الذي مازال متمسكا بأهدافه غير اسلوبه .
ان شعبنا كان بالمرصاد لكل محاولات التنكر والتخفي وواصل مطاردته لها وتجميع قوى الشعوب ضدها . "
ويسجل الميثاق اصرار الشعوب على محاربة الأحلاف العسكرية وتصفية العدوان الاسرائيلي على جزء من الوطن الفلسطيني ومقاومة التمييز العنصري . ثم يتحدث عن السعي نحو السلام مشيرا الى مساهمة شعبنا في أعمال باندونج ومشاركته في اعمال الأمم المتحدة وفي العمل من اجل تحريم التجارب الذرية ونزع السلاح لأنه يؤمن ايمانا مطلقا بالحياة . ثم يقول الميثاق :
"ان العمل من أجل السلام هو الذي سلح شعبنا بشعار عدم الانحياز والحياد الايجابي . "
ويتحدث الميثاق عن التعاون الدولي من اجل الرخاء المشترك لشعوب العالم فيرى انه " امتداد طبيعي للحرب ضد الاستعمار وضد الاستغلال و هو استطراد منطقي للعمل من أجل السلام لتوفير الجو الأمثل للتطوير.
"ان السلام لا يمكن أن يستقر في عالم تتفاوت فيه مستويات الشعوب تفاوتا مخيفا. ان السلام لا يمكن ان يستقر على حافة الهوة السحيقة التي تفصل بين الأمم المتحدة والامم التي فرض عليها التخلف.
ان الصدام المحقق بين التخلف والتقدم هو الخطر الثاني الذي يهدد السلام العالمي بعد الخطر الأول الذي يكمن في نشوب حرب ذرية مفاجئة.
ان التعاون الدولي من اجل الرخاء هو الأمل الوحيد في تطور سلمي يقرب ما بين مستويات الأمم ويزرع المحبة بينها بديلا عن سموم الكراهية."
ويحدد الميثاق الجبهة العريضة التي يمتد عليها التعاون الدولي والتي تحاول الثورة العربية أن تتحرك عليها وتشمل هذه الجبهة فتح الأسرار العلمية للجميع " فان احتكار العلم يهدد البشرية بنوع جديد من السيطرة الاستعمارية " والدعوة الى توجيه الذرة للسلام حتى تستطيع ان تخدم قضية التطوير وتضيء جوا نب التخلف المظلم، ومواجهة التكتلات الاقتصادية الدولية بحيث لا تستخدم بواسطة الأقوياء لتحطيم محاولات غيرهم من أجل التقدم.
وبعد أن ينهي الميثاق شرحه لهذه الخطوط العميقة الثلاث التي تمثل بمجموعها فكرة عدم الانحياز والحياد الايجابي وتحمل في طياتها رؤية واضحة لما ينبغي أن يكون عليه مستقبل الانسانية ، نراه يحدد الدوائر التي تتحرك فيها الثورة العربية.
"واذا كان شعبنا يؤمن بوحدة عربية، فهو يؤمن بجامعة افريقية ، ويؤمن بتضامن آسيوي افريقي ويؤمن بتجمع من أجل السلام يضم جهود الذين ترتبط مصالحهم به ، ويؤمن برباط روحي وثيق يشده الى العالم الاسلامي ، ويؤمن بانتمائه الى الامم المتحدة وبولائه لميثاقها الذي استخلصته آلام الشعوب في محنة حربين عالميتين تخللتهما فترة من الهدنة المسلحة."
ويوضح الميثاق ان الايمان بهذا كله لا يتعارض مع بعض وانما هي حلقات سلسلة واحدة . ويشرح مرتكزات هذا الايمان معبرا عن مدى انفتاح الثورة العربية وبحثها نقاط اللقاء في العالم وفهمها للمشكلات الدولية المزمنة . ويختم الميثاق هذا الحديث.
"ان شعبنا قد عقد العزم على أن يعيد صنع الحياة على أرضه بالحرية والحق والكفاية والعدل بالمحبة والسلام .
ان شعبنا يملك من ايمانه بالله وايمانه بنفسه ما يمكنه من فرض ارادته على الحياة ليصوغها من جديد وفق امانيه."
قلنا ان هذه القضايا الثلاثة بلورت فكرة عدم الانحياز والحياد الايجابي ورسمت حدود العالم الثالث وقد برزت نتيجة لثورة التحرير والانقلاب النووي في عالمنا المعاصر. وحين تمت بلورة الفكرة وانعقد المؤتمر الاول للدول غير المنحازة كانت المرحلة الثانية من مراحل توازن القوى بين الكتلتين التي تقوم على استراتيجية الغدر والردع الشامل في أوجها ، وأعصاب العالم مشدودة بسبب ذلك كما رأينا، وقد استطاعت جهود الدول غير المنحازة ان تخفف من التوتر العالمي وأبت هذه الدول على اطلاق صيحات التحذير من خطر الحرب ونداءات السلام القائم على العدل . وعملت على توفير الجو السياسي والاقتصادي الذي يمهد لسلام بناء.
وقادت الجمهورية العربية المتحدة مع الهند ويوغوسلافيا هذه الجهود . وكانت لقاءات زعماء عدم الانحياز الثلاثة مناسبة لاطلاق الصيحات والنداءات . وبعد مؤتمر بلغراد بشهرين التقوا بالقاهرة وأصدروا في ١٩ نوفمبر بيانا ثلاثيا يعلن أن بذل كل جهد من أجل السلام هو الهدف الحيوي للسياسة الخارجية للدول الثلاثة .
وفي ٢١ مارس ١٩٦٢ وجهت الجمهورية العربية المتحدة نداء الى الدول الذرية للامتناع فورا عن التجارب النووية. ووقفت القاهرة بعد ذلك يوم ٢٦ ابريل مع الرأي العام العالمي احتجاجا على سلسلة تجارب ذرية

قامت بها الولايات المتحدة . وكان عبد الناصر قد أبدى استعداده للسفر الى جنيف في رسالة جوابية منه لخروشوف من اجل السعي لعقد اجتماع للجنة نزع السلاح على مستوى رؤساء الدول اذا كان في ذلك خدمة للسلام.
بفعل هذه الجهود وبفضل تجارب الضمير العالمي مع المبادىء التي اعلنتها الدول غيرالمنحازة أصبح لهذه الدول صوتها المسموع في النزاعات الدولية . وأخذت الثورة العربية ضمن فريق عدم الانحياز مكانها في عالم اليوم . وكانت حركة عبد الناصر كما رأينا سريعة واثقة بالمبادىء التي تنطلق منها. وكانت كلماته معبرة اصدق تعبير عن المثل الخلقية لهذه المبادىء . وهكذا وجدنا كيندي يكتب لعبد الناصر شارحا حين تفجرت أزمة الصواريخ السوفيتية في كوبا في اكتوبر ١٩٦٢، ويرد عبد الناصر خاتما رسالته بتسجيل وجهة نظره في المسؤولية الهائلة التي تتحملها الولايات المتحدة حيال الجنس البشري اجمع.
"اننا نعتقد ان الولايات المتحدة بكل قوتها وهيبتها تقدر على دعم السلم كما لا يقدر عليه أحد. كما انها تتحمل مسؤولية تاريخية أمام البشرية كلها في هذا الصدد، حيث السلام القائم على العدل مطلب انساني يتقدم جميع المطالب الأخرى فهو لا يصون الحياة فقط ، انما هو يكرمها " .
ولم تكن رحلة الدول غير المنحازة للوصول الى هدفها رحلة سهلة، فقد شقت طريقها وسط صعوبات أهمها موقف الكتلتين من فكرة عدم الانحياز . فأما كتلة الغرب الاستعماري بما تمثله من استعمار قديم واستعمار جديد فقد رفضت الفكرة وحاربتها بشدة منذ ظهورها- كما رأينا- واستماتت في محاولة ضم العالم الثالث ، عالم الدول النامية الفقيرة حديثة الاستقلال ، والحاقها في فلكها السياسي والمذهبي حتى وان وصل الضغط والاكراه الى حد العنف و القهر.
وفي هذا السبيل- كما يقول جمال حمدان- " استهدف الغرب هدفين الاستراتيجية والايديولوجية واتخذ أداتين الاحلاف العسكرية والنموذج الرأسمالي " وقد رأينا كيف اعتمد في الاستراتيجية على الاحلاف العسكرية التي ركز فيها على الوطن العربي وجنوب شرقي آسيا ثم افريقيا ، واصفا اياها بالاحلاف " الدفاعية " ضد " الخطر الشيوعي " وكان منطقه في حملته الشرسة هذه هو انه مع التحرير اصبحت هذه المناطق بلا قوة حربية تواجه ذلك الخطر، فهي تعاني من وجود فراغ لا بد من ملئه بالأحلاف (٨٢) . وقد رأينا كيف نظر دالاس الى فكرة عدم الانحياز على انها خيانة لحملته ضد الشيوعية، ثم كيف طرح ايزنهاور مبدأه القائم على نظرية الفراغ.
وحين تفجر رد شعوب العالم الثالث في وجه هذه الاستراتيجية وسقطت سياسة الاحلاف الغربية انطلق المعسكر الغربي الرأسمالي ليعرض على العالم ايديولوجيته الرأسمالية ، مستغلا وجوده الاستعماري السابق فيه وعلاقاته الاحتكارية الجديدة معه . وقد وقفت دول العالم الثالث ضد هذا العرض مدركة أن نكبتها كانت كبيرة بسبب النظام الرأسمالي وانه لا سبيل أمامها لتعوض ما فاتها الا الاقتصاد الموجه والتخطيط.
ولم يختلف موقف كتلة المعسكر الشرقي كثيرا من قبول فكرة عدد الانحياز عن المعسكر الغربي مع اختلاف الدوافع . فقد نظر بريبة وشك بادىء الأمر -كما سبق أن ذكرنا- للثورة العربية في بداية الخمسينات ، ولكنه التقى معها ومع ثورة التحرير في العالم الثالث على محاربة الاستعمار الغربي. وكان في صالحه أن يعزز وقفة دول العالم الثالث ضد الاحلاف الغربية الموجهة ضده . ولكنه بقي من الناحية النظرية يتطلع لثورات بروليتارية شيوعية فيها ، ويشك في الطريق الاشتراكي الذي اختارته دول العالم الثالث معلنا انه لا اشتراكية الا الاشتراكية العلمية " الماركسية " . وهكذا توزع الاتحاد السوفياتي في موقفه من عدم الانحياز بين الرفض الذي يقول به بعض المنظرين وبين القبول الذي يفرضه العداء للاستعمار الغربي . ولقد كان يتردد في أوساط الكرملين حين بدأت فكرة عدم الانحياز تشق طريقها ما قاله تشاييف مدير ادارة الشرق الاوسط في وزارة الخارجية السوفيتية لعبد الحكيم عامر عام ١٩٥٧ " ان عدم الانحياز خرافة ، وعلى مصر ان تقرر اختيار معسكر دولي اذا كانت راغبة في أن تكسب قوة حقيقية.. وان عدم الانحياز مثل السير على حبل مشدود ولن يصمد طويل! ا " (٨٣ . (ثم حين قبل الاتحاد السوفيتي بالفكرة وبدأ يتعامل مع دول العالم الثالث على أساس من هذا القبول بقي موقفه محكوما بمصلحته كاحدى الكتلتين . ويعبر عن هذا الموقف جواب خروشوف على سؤال عبد الناصر له لماذا لا يحتمل عدم انحياز تيتو في الوقت الذي يقبل بعدم انحيازه . فقد قال خروشوف " لأنه اذا نجح تيتو فان من شأنه ان يوثر في كتلتنا ، لكنك اذا نجحت انت فان من شأنك أن توثر في الكتلة الأخرى " (٨٤) . وسواء أكان هذا الحوار قد حدث بنصه أو انه قصة رمزية فإن قول خروشوف يعبر عن موقف الاتحاد السوفيتي من الفكرة بعد أن شقت طريقها . ونلاحظ ان قبول الكتلة الشرقية بفكرة عدم الانحياز كواقع سياسي لم يقترن به قبول نظري بها كايديولوجية متميزة . فبقيت لا تقبل تسمية اشتراكية دول العالم الثالث بالاشتراكية، بل تنظر اليها كطريق غير رأسمالي أو كمرحلة انتقال من الرأسمالية الى الشيوعية. وتركز على أنها حركات تحرر وطني وكما ظهرت في الغرب الاستعماري دراسات كثيرة عن العالم الثالث تشكك في فكرة عدم الانحياز من أساسها، ظهرت في المعسكر الشرقي دراسات عن العالم الثالث تنطلق من قبول الفكرة وتحاول توجيهها وفلسفتها م! اركسيا (٨٥. (
وهكذا نجد ان رحلة الحياد الايجابي وعدم الانحياز عبرت جسرا من الصراع . وأفادت من الحرب الباردة بين

المعسكرين ولكنها لم تصبح جزءا منها. واستطاعت وسط ظروف توازن القوى العالمي ان تؤثر وتساهم في توجيه سياسة العالم.

**

بعد النجاح الذي حققته فكرة عدم الانحياز في مؤتمرها الاول ببلغراد تابعت الدول غير المنحازة سيرها في الطريق الثالث . وتحملت الثورة العربية مسؤولية كبيرة في قيادة الركب واعلاء الفكرة . وكان ذلك يعني النضال وفق الخطوط الثلاث التي حكمت سياستها الخارجية . وضمن خط النضال من أجل الرخاء والقضاء على التخلف في الدول المستقلة حديثا دعا عبد الناصر وتيتو الى أول مؤتمر للدول النامية ليبحث في مسائل التنمية الاقتصادية . وعقد المؤتمر بالقاهرة وحضرته ست وثلاثون دولة نامية . وقد حدد عبد الناصر في خطابه في افتتاح المؤتمر يوم ٩ يوليو ١٩٦٢ المشكلة التي تواجهها الدول النامية في عالم اليوم وطرح أفكارا لحلها.

"انكم جميعا قادمون الى هنا من أوطان تبذل شعوبها جهودا جبارة لاعادة صنع حياتها. شعوب أرغمت على التخلف في غالب الاحيان بسبب ظروف لا دخل فيها لارادتها . شعوب تيقظ فيها التصميم الاكيد على تعويض الماضي ، وعلى اللحاق بالمستقبل في ظروف يخطو فيها التقدم بسرعة متزايدة.

..ان هذه الشعوب- برغم كل جهودها ونظرا لسرعة خطى التقدم بسبب الثورة العلمية- نجد ان الفوارق بينها وبين غيرها من الدول السابقة في التقدم تزيد ولا تقل .. الامر الذي يفرض دوره جهودا مضاعفة.

ومن ناحية اخرى فان كثيرين منا يواجهون مشكلة ضغط الزيادة في عدد السكان بسرعة تكاد ان تبتلع معدل النمو الاقتصادي .. وانه لا بد من مجهود اكبر لمواجهة مشكلة انخفاض مستوى المعيشة التي سوف تحدث عالميا نتيجة لتضخم عدد السكان زيادة على كل موارد الغذاء في العالم..

ان المشاكل التي تتعرضون لها، هي في الواقع مشاكل التقدم وكيفية احرازه ، وهي في الوقت نفسه مشاكل السلام، وتلك حقيقة يجب أن يعرفها الكل ، وان يثقوا انه لا يمكن أن يقوم سلام في عالم تتفاوت فيه مستويات المعيشة تفاوتا مخيفا، فيكون التقدم حكرا لقلة من الدول ويكون التخلف فرضا على كثرتها الغالبة. لكنا في نفس الوقت الذي نقول فيه ذلك نستطرد منه على الفور الى القول بأن هذا المؤتمر ليس موجها على أي شكل ضد المتقدمين."

ولقد اصدر هذا المؤتمر اعلان القاهرة الذي تضمن أن التوسع التجاري بين الدول النامية وبخاصة على الاساس الاقليمي، يمكن أن يسهم اسهاما مفيدا في التنمية الاقتصادية، والذي دعا الى توثيق العلاقات المتبادلة بين الدول النامية في مجالات التجارة والمدفوعات والتمويل و التعاون العلمي والفني والصناعي . وقد تبنت الامم المتحدة اعلان القاهرة ودعت الى أول مؤتمر للتجارة والتنمية في جنيف عام ١٩٦٤ فشهدته سبع وسبعون دولة نامية.

وحين نشب النزاع بين الصين والهند حول الحدود في خريف عام ١٩٦٢ قاد عبد الناصر ممثلا للثورة العربية بدور فعال في اقرار السلام وانطلق من موقعه في فريق عدم الانحياز. وقد شعر هو ونهرو بأن الهجوم الصيني كان هجوما على فكرة عدم الانحياز، وانه جاء بعد ان شعر الصينيون بأن عدم الانحياز اصبح قوة يجب أن يحسبوا لها حسابا ، وكا نوا يعتقدون قبل ذلك انه مرحلة عابرة (٨٦ . (ووضح ان موقفهم المبدئي منه يلتقي في بعض الجوانب مع موقف الاتحاد السوفيتي وان بدا الاختلاف في التدليل النظري عليه والتطبيق العملي له.

وضمن خطة مكافحة الاستعمار ومتابعة لجهد الثورة العربية في افريقيا شارك عبد الناصر في مؤتمر اديس ابابا للقمة الأفريقي في ٢٢ مايو ١٩٦٣ ووقع في ختام الاجتماعات مع اربعة وعشرين زعيما افريقيا ميثاق منظمة الوحدة الافريقية. وألقى في المؤتمر خطابا هاما يوم ٢٤ مايو أوضح فيه ان القارة الأفريقية تواجه تحديات الحياة بينما يعاند الاستعماربشراسة ارادة الحرية فيها وينهب ثرواتها. وهاجم اجراء التجارب الذرية على ارض أفريقيا وطالب بمواجهة مشكلات التخلف بأفضل الحلول ، وعبر عن الحاجة الى العقل الذي يملك الحكمة والشجاعة ، ودعا الى اقامة جامعة افريقية واعلان ميثاق افريقي والى عقد اجتماعات دورية لرؤساء افريقيا.

"تعتبر الجمهورية العربية المتحدة ان القارة الافريقية تواجه اليوم اقصى مراحل نضالها. واذا كنا نقول ان اعلام الاستقلال التي ارتفعت على ارض القارة خلال السنوات الأخيرة دليل على ان ميلاد الحرية قد تحقق ، فان الميلاد وحده حتى بمعجزاته البالغة لا يكفي ، فان الحرية لا بد ان تنمو ولا بد ان يكون نموها صحيحا وكاملا وقادرا على مواجهة مسؤوليات الحياة في عصرها. من هنا بعد معجزة الميلاد فان القارة تواجه الان في رأينا تحديات الحياة وعليها وفق ظروف صعبة ان تؤكد صلاحيتها للبقاء والنمو واكثر من ذلك قدرتها على تجديد الحياة دائما وتطويرها.

ان مجرد انعقاد هذا المؤتمر دليل كما قلت على وجود ارادة افريقية حرة واحدة . فنحن لم نصل الى هنا صدفة ولا وصلنا بسرعة.

ان هذه الارادة الحرة الواحدة تحتاج الى عقل منظم والى أعصاب محركة لتستطيع أن تصمد لما يواجهها من

تحديات ولتقدر على التقدم بكفاية الى الآمال الافريقية العظمى. "
وتتالت بعد قيام منظمة الوحدة الافريقية مواقف الثورة العربية التي تجسد عمليا ماأعلنته في المؤتمر الاول وما تبنته قبل ذلك في سياستها . فقد قطعت القاهرة علاقتها الدبلوماسية مع حكومة البرتغال بسبب حربها الاستعمارية في افريقيا تنفيذا لقرار مؤتمر القمة الافريقية . ثم اعترفت القاهرة بحكومة الثورة لجمهورية انجولا في المنفى . وحين نشبت الحرب بين الصومال واثيوبيا في فبراير ١٩٦٤ بسبب مشاكل الحدود وجه عبد الناصر نداء الى رئيسي البلدين طلب فيه نقل الخلاف الى اطار منظمة الوحدة الأفريقية وفي يوليو ١٩٦٤ استضافت القاهرة مؤتمر القمة الافريقي الثاني . وقد شرح عبد الناصر في خطابه امام المؤتمر الاخطار التي تواجه افريقيا وحدد الطريق لمواجهتها وأكد على قضايا عدم الانحياز الثلاثة.
"لقد كنا قبل اديس ابابا نقوم بمحاولات استكشاف اسفرت عن مجموعات افريقية مختلفة ثم كانت اديس ابابا محاولة تجمع..
ونحن الان في القاهرة وعلينا ان نحل التجمع الى لقاء معمق بالفهم الصحيح والمعرفة الوثيقة نستطيع ان نشدد ضغطا اكثر ضد البقايا الاستعمارية في القارة حتى تنزاح آخر بقايا النظام الاستعماري عن افريقيا.
ونستطيع أن نستكمل الحصار من حول بقع الفرقة العنصرية البغيضة في جنوبي افريقيا وفي روديسيا...
ونستطيع أن نطرح قضية التنمية على اهتمام العالم بالقدر الذي تستحق . ولقد اثبتت لنا تجربة مؤتمر التجارة في جنيف ان تعاوننا معا يستطيع ان يفتح امامنا الابواب المغلقة ويستطيع ان يضع امام السابقين الى التقدم الحقيقة التي لا مهرب منها وهي ان رخاء العالم لا يتجزأ وان الرخاء لا ينفصل عن السلام.
ونستطيع وصل الروابط النضالية والجسور العريضة التي تمتد بين قارتنا وبين آسيا. وكذلك مع امريكا اللاتينية..
ونستطيع فوق ذلك كله ومعه أن نشارك في بناء عالم السلام."
واصدر مؤتمرالقمة الافريقي الثاني قرارات حول تصفية الاستعمار و التفرقة العنصرية ومساعدة حركات التحرر و دعم الوحدة الافريقية.
كان عام ١٩٦٤ عاما مشهودا في تحرك الثورة العربية الدولي وفي بروز سياسة عدم الانحياز والحياد الايجابي وقد سلطت الاضواء فيه على القاهرة التي تألقت وهي تستقبل عددا كبيرا من رؤساء دول العالم . فبعد ان انعقد فيها مؤتمرالقمة العربي الاول في يناير استجابة لدعوة عبد الناصر ، زارها خروشوف زيارة رسمية في مايو بمناسبة الأحتفال بانتهاء المرحلة الاولى في بناء السد العالي الذي ساهم الاتحاد السوفياتي مساهمة فعالة في تنفيذه . وبعد ان انعقد فيها مؤتمر القمة الافريقي الثاني في يوليو استضافت في اكتوبر المؤتمر الثاني للدول غير المنحازة.
وقد جسدت الثورة العربية في ذلك العام مفهومها لفكرة عدم الانحياز افضل تجسيد .فهي تنطلق الى تبني الفكرة من ايمانها بوطن واحد وأمة عربية واحدة . وهي تدرك أبعاد عالمها وطبيعة القوى التي تحكمه فتجد مجالها في العالم الثالث ليحتل مكانه المناسب وليقوم بدوره . وهي تتحرك بحرية وفرتها فكرة عدم الانحياز في علاقاتها مع الكتلتين الكبيرتين . وقد نجحت حركتها مع الاتحاد السوفيتي في تجاوز الازمة الشديدة التي أحاطت بالعلاقات العربية السوفيتية اوائل الستينات ، واوصلت الى رسم حدود علاقة تقوم على معاداة الاستعمار والتعاون من اجل السلام والتقدم والرخاء مع بقاء التمايز العقائدي . كما حافظت على علاقة حوار وتعامل مع الولايات المتحدة الاميركية تقدم لنا فكرة عنها مراسلات عبد الناصر مع كنيدي وجونسون حول القضايا الدولية.
وانعقد مؤتمر عدم الانحياز الثاني بالقاهرة في وقت تغيرت فيه موازين القوى العالمية عما كانت عليه عند انعقاد مؤتمر بلغراد قبل ثلاث سنوات . فبعد اشتداد ازمة الصواريخ الكوبية وما صحبها من توتر دولي دخل توازن القوى بين المعسكرين مرحلته الثالثة حين دخلت الغواصة الذرية مسرح الصراع . واصبح التوازن والتكافؤ اكثر حدة ودقة من حد السيف ، وللخروج من أسر هذا التوازن ظهرت في اميركا فلسفة " الرد المرن " كاستراتيجية لهذه المرحلة ، وهي تعني التقدم الى خوض حروب صغيرة محدودة بالسلاح التقليدي دون ما اثارة للحرب النووية ودون خوف من الردع النووي الشامل . ونتج عن هذا التحول في نمط التوازن الدولي ان تراجعت الحرب الذرية الشاملة تاركة المجال للحروب الصغيرة المحلية . وبدأت الدولتان الكبيرتان تتقاربان قليلا وبالتدريج وارتفع شعار " التعايش السلمي " ، وانعكس هذا التقارب في تزايد التبادل التجاري وفي مجالات الاتفاق على نزع السلاح ، وشهد كل من المعسكرين تفككا في داخله وتباعدا بين دوله، وسيظهر بوضوح في رومانيا والصين وفرنسا . وقد جاء هذا التطور وعلى الخصوص في مجال الحرب المحدودة - على حساب العالم الثالث الذي ! اصبح على دوله وحركات التحرير فيه ان تدرك أن عليها ان تعتمد على نفسها بدرجة متزايدة في الدفاع وحماية مكاسب التحرير (٨٧. (
وبلغ عدد الدول التي شاركت في المؤتمر الثاني ثمان واربعون دولة ، كما حضرته عشرة دول كمراقبين وافتتح عبد الناصر المؤتمر يوم ٥ اكتوبر بخطاب شامل نبه فيه الى اختلاف الظروف التي ينعقد فيها المؤتمر الثاني عما كانت عليه حين انعقد مؤتمر بلغراد. فلقد خفت الحرب الباردة كثيرا عن ذي قبل وتباعدت الكتل

وتحققت انتصارات عظيمة ضد الاستعمار و تم التوصل لاتفاقية موسكو للحظر الجزئي للتجارب الذرية. ثم طرح بوضوح التساؤل حول سياسة عدم الانحياز وهل استنفذت بسبب هذا الاختلاف دورها ؟.
"نسمع الان من انحاء كثيرة من يقولون لنا ان سياسة عدم الانحياز قد استنفذت دورها بالتغيرات التي طرأت على الموقف الدولي وخاصة فيما يتعلق بالحرب الباردة وسياسة الكتل.
ولا بد ان نسأل انفسنا من هذا المكان ، ومن موضع المسؤولية التاريخية والانسانية الذي نقف فيه. هل هذا صحيح؟
من الضروري بالنسبة لنا أولا ان نحدد بعض المفاهيم عن سياسة عدم الانحياز ونؤكد بذلك مرة اخرى ما قاله كل منا من قبل في مختلف المناسبات .
المفهوم الاول ان سياسة عدم الانحياز ليست تجارة في الصراع بين الكتلتين تستهدف الحصول على اكبر قدر من المزايا من كل منها ، بدليل اننا وجهنا اكبر جهودنا لازالة هذا الصراع والتنبيه الى مخاطره والعمل ايجابيا لتلافيه .
المفهوم الثاني ان سياسة عدم الانحياز ليست سلبية تريد أن تنأى بنفسها عن مشاكل عالمها ، بدليل اننا حاولنا ارتياد جميع مشاكل عصرنا وخرجنا من ذلك بحلول طرحناها في وجه سياسة الكتل . ولقد كان كل ما ألزمنا انفسنا به هو ان نصدر في كل موقف نتخذه عن نظرة امينة لا يقيدها التزام مسبق الا بالمبادىء التي ارتضتها الشعوب في اغلى وثيقة توصلت اليها بتضحياتها وهي ميثاق الامم المتحدة .. ميثاق السلام القائم على العدل.
واذن نخرج من هذه المفهومين بعدة حقائق:
ان سياسة عدم الانحياز ليست تجارة حرب باردة .
ان التغيرات في اوضاع الكتل الدولية لا تؤثر في سياسة عدم الانحياز ، وانما يبقى لهذه السياسة تعبيرها عن ضمير الانسانية الملتزم بميثاق الامم المتحدة سواء كانت هناك كتلتان أو ثلاث أو أربع.
ان موقف عدم الانحياز هو في صورته النهائية تجميع السلام القائم على العدل . " ..
وهكذا حددت الثورة العربية المفهوم الراسخ لفكرة عدم الانحياز. وأنطلق عبدالناصر من هذا المفهوم يناقش في خطابه قضايا السلام ويرسم الطريق اليه . وركزعلى الفوارق المؤلمة في مستويات معيشة الشعوب على مستقبل الانسانية . وكانت القاهرة قد استضافت في يوليو ١٩٦٤ المؤتمر الاقتصادي للدول النامية الذي سلط الاضواء على هذه الفوارق . وصدر عن مؤتمر عدم الانحياز الثاني بيان ركز على الناحية الانمائية الاقتصادية.
بعد هذه الذروة التي بلغتها سياسة عدم الانحياز في عام ١٩٦٤ قدر لها ان تجابه ظروفا بالغة الشدة في الاعوام التالية . فقد ارتفع المد الاستعماري واتصل بفعل انطلاق الولايات المتحدة ، لتصفية سياسة عدم الانحياز بسلاح الاستعمار الجديد مستغلة التعايش السلمي . وتتالت الضربات التخريبية في دول عدم الانحياز- وعلى الخصوص في أفريقيا التي شهدت في عام ١٩٦٦ اثني عشر انقلابا وعاشت الامم المتحدة أزمة عنيفة ونشبت الحرب في فيتنام وثارت اضطرابات في اميركا اللاتينية . ثم جاءت ضربة عدوان يونيو ١٩٦٧ موجهة للثورة العربية طليعة عدم الانحياز . وقد استهدف التحالف الاستعماري الصهيوني بهذه الضربة فيما استهدفه ان يقضي على فكرة عدم الانحياز بعد أن يثبت عجزها.
والحق ان الموقف بدا صعبا للغاية اثر العدوان حيث وضح ان الولايات المتحدة استغلت التوازن النووي لصالحها الى ابعد حد ، بينما كف الاتحاد السوفيتي يده . وهكذا واجه العالم الثالث عدوان الاستعمار الاميركي الذي تغطرس بالقوة . وبدا للبعض ان عدم الانحياز وصل طريقا مسدودا ، وأن عليه ان يختار الانضمام التبعي لاحدى الكتلتين .
ولقد صمدت الثورة العربية في هذا الامتحان الصعب، كما انطلقت ثورة شعب فيتنام بقوة اكبر تواجه العدوان الاميركي . وأكد المثلان ان طريق عدم الانحياز مفتوح ، وان الفكرة قادرة على التلاؤم مع المتغيرات الدولية . فأما الثورة العربية فقد خاضت ضد التحالف الصهيوني الاستعماري) الاسرائيلي الاميركي) حرب الاستنزاف وصمدت امام متطلباتها . وأقامت علاقة مع الاتحاد السوفياتي تقوم على الصداقة والتعاون في مواجهة العدوان الاستعماري موضحة ان هزيمة عدم الانحياز تترك الطريق مفتوحا لضربة قادمة بوجهها الاستعماري الاميركي للمعسكر الشرقي . وأما ثورة شعب فيتنام فقد اكدت أن حركات التحرير لا تزال قادرة على شق طريقها وسط مناخ التعايش ، وان عطاء الشعوب لا يحد وهو كفيل بتفجير تناقضات الاستعمار العالمي.
وعلى الرغم من ان الثورة العربية صبت كل جهودها بعد العدوان لتحقيق هدف أساسي لا ينتظر هو تحرير الأراضي العربية ، فانها لم تغفل عن دورها العالمي ، وبذلك ما تستطيعه من اجل حركات التحرير وعلى الخصوص في فيتنام وفي نيجيريا لمجابهة انفصال بيافرا . ومع ان عبد الناصر وتيتو شعرا في عام ١٩٦٨ حين غزا الاتحاد السوفياتي تشيكوسلوفاكيا ان يد عدم الانحياز قد غلت ولم يصدر رأي عن عبد الناصر يدين الغزو ، الا ان نظر عبد الناصر بقي مركزا على عدم الانحياز وكله ثقة ان الأزمة التي يعانيها ستنتهي.
ورحل عبد الناصر فجأة يوم ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ بعد ان بذل قصارى جهده لتحرير الاراضي العربية. وبقيت

تجربته الحافلة في المجال الدولي ، و ذكراه كواحد من زعماء عدم الانحياز وكأول عربي يحتل مكانة بارزة في عالمنا المعاصر .وبقيت أيضا الثورة العربية التي قادها تتلمس طريقها لمتابعة المسيرة.
ولقد حدث بعد رحيل عبد الناصر متغيرات اخرى في عالمنا ودخل توازن القوى منذ عام ١٩٧٢ مرحلته الرابعة . فشهد ذلك العام زيارة نيكسون للصين الشعبية والاتحاد السوفياتي . ودخول الصين الامم المتحدة وظهرت سياسة الوفاق بين الدولتين الكبيرتين وتحددت بعد زيارة بريجنيف للولايات المتحدة في يونيو ١٩٧٣ ونراها اليوم تتجسد في زيادة التبادل التجاري بين المعسكرين وفي المشاريع الغربية داخل الاتحاد السوفيتي.
وتطرح هذه المتغيرات على الثورة العربية ودول العالم الثالث ان ترسم طريقها على ضوئها وتحدد استراتيجيتها وهي في اعتبارها . والطلائع العربية مدعوة اليوم وهي تؤمن بضرورة استمرار الثورة العربية الى دراسة هذه المتغيرات واسترجاع دروس وعبر التجربة العربية الثورية في نضالها من اجل بلورة فكرة عدم الانحياز والحياد الايجابي . ولا تزال القضايا الثلاثة التي حددتها الثورة العربية أساسا لفكرة عدم الانحياز قائمة . فلا بد من القضاء على الاستعمار ، ولا بد من سيادة السلام القائم على العدل ، ولا بد من التقدم والتعاون الدولي من اجل الرخاء . وحين تنطلق الطلائع العربية في مهمتها هذه على المستوى الدولي فانها تمهد لذلك بنضالها لتحرير ارضها لأن مصير الوطن العربي يتوقف على مصير فلسطين ، ومصير العالم الثالث يتوقف على مصير الوطن العربي كما قال جمال حمدان - وعلى هذه الطلائع ان تناضل ايضا لانتصار اهداف النضال العربي لأن التقدم العربي لا يمكن بناؤه على التجزئة.
ان الطلائع العربية مدعوة أن تسترجع المهام التي حددها عبد الناصر لنفسه ولها . وقد شرحها في خطابه بمجلس الامة حين قبل الترشح لرياسة الجمهورية يوم ٣٠ يناير ١٩٦٥. وكانت آخر هذه المهام هي مهمة الثورة العربية عالميا.
"ان الامة العربية ليست مقطوعة عن دنياها ، وانما هي في القلب تماما في هذه الدنيا . ولقد كانت لها منذ فجر التاريخ رسالة حرية وحضارة جاهدت في سبيلها لكي تنشر الامل والنور وتحمل ألويتهما الى اقاصي الارض.
وإذا كانت الظروف قد صدت بالنكسة هذا الدور الانساني الكبير ، فان امتنا العربية قد تمكنت من الارتفاع فوق الظروف وعادت لتحمل رسالتها من جديد، حرية وحضارة وتضيف اليهما دعوة السلام وعيا بالحقائق الجديدة التي ابرزتها ثورة العالم الحديث ، وفي مقدمتها استحالة الحرب العالمية بسبب الخطر النووي.
وإذا كان الشعب المصري في هذه المرحلة يحمل النصيب الأوفى من هذه المسؤولية العربية العالمية اصالة عن نفسه وتعبيرا عن امته ، فليس ذلك في واقع الامر مجرد تطوع وتبرع من اجل المبادىء وحدها.. وانما هو الى جانب المبادىء ضرورة أمن في عالم ضاعت فيه المسافات وانتهى امرها. "
ان الطلائع العربية وهي تتصدى لهذه المهام بعد رحيل عبد الناصر لتستشعر من خلال تجربته الثقة بقدرتها على القيام بدورها وحمل رسالة العرب الحضارية الى العالم.

هوامش

(1)أنيس صايغ في مفهوم الزعامة السياسية من فيصل الأول الى جمال عبد الناصر ، ص ١٠
(2)انتوني نانتج العرب ص ٣٧٧ .
(3)انظر مقالة عبد الناصر كما يراه العالم مجلة الكاتب العدد ١١٦ نوفمبر ١٩٧٠ .
(4)انظر عبد الله الريماوي البيان القومي الثوري ص ١١٥ و ١١٦
(5)انظر مطاع صفدي ناصر الناصرية والثورة العربية ص ٨ .
(6)جمال حمدان : استراتيجية الاستعمار والتحرير ، ص ٢٧٨ .
(7)عبد الله الريماوي : البيان القومي الثوري ، ص ١١٥ .
(8)نديم البيطار : مجلة مواقف عدد ٦ ، ص ٦ ومجلة الآداب فبراير ٧١ .
(9)يراجع بحث عبد الناصر والقومية العربية للمقدم ابراهيم الفحام حيث أورد مقتطفات من بعض هذه الدراسات . من منشورات معهد تدريب ضباط الشرطة .
(10)جمال حمدان : شخصية مصر ، ص ٢٤٥ طبعة كتاب الهلال .
(11)الميثاق الوطني ، فصل جذور النضال المصري .
(12)انيس صايغ : الفكرة العربية في مصر ، ص ١٧٤ .
(13)محمد حسنين هيكل : مذكراتي في السياسة المصرية ، جـ ١ ، ص ٥٠ ٥١
(14)محمد حسين هيكل : المصدر نفسه .
(15)جمال عبد الناصر : فلسفة الثورة ، ص ٦٣ .
(16)فلسفة الثورة ، ص ٦٣ .

(17)فلسفة الثورة ص ٦٩ .
(18)حديث مع ديزموند ستيوارت في ١٩٥٥/٤/١
(19)انيس صايغ ، ص ٢٥٩ ، ومحمد الفحام ، ص ٢٠ .
(20)احمد الشقيري : حوار واسرار مع الملوك والرؤساء .
(21)انظر يوميات الثورة ، مجلة الطليعة يوليو ٦٥ .
(22)جمال حمدان : شخصية مصر ، ص ٢٣٦240 –
(23)ساطع الحصري : آراء واحاديث في الوطنية والقومية ، القاهرة ١٩٥١ ، ص . 118
(24)يراجع انيس صايغ في مفهوم الزعامة ، وعبد الله الطريقي في مجلة الطليعة يوليو ٦٦ ، ونديم البيطار الآداب ، فبراير ٧١ .
(25)جمال حمدان ، المصدر نفسه ، ص ٢٥٤ ٢٥٦ .
(26)تراجع الطليعة عدد يوليو ١٩٦٥ وكرانجيا : كيف نجح عبد الناصر ، واحاديث عبد الناصر في اللجنة التحضيرية للميثاق ، وفي مجلس الأمة عام ١٩٦٤ والاعداد الخاصة التي صدرت بمناسبة وفاته في المجلات العربية .
(27)نانتج العرب ، ص ٣٧٥ .
(28)نانتج العرب ، ص ٣٧٦ .
(29)جون كامبل – الدفاع عن الشرق الاوسط .
كرانجيا كيف نجح عبد الناصر ...
(30)جون كامبل – الفصول : الاول والثالث والرابع .
(31)محمد حسنين هيكل خبايا السويس ، ص 128 عن كتاب دالاس في السويس لتايمز .
(32)يراجع المصدر نفسه ، ص ١٢٣ وما بعدها .
(33)دراسة هيوتوماس عن السويس ، خبايا السويس ، ص ١٢ .
(34)دراسة هيوتوماس عن السويس ، خبايا السويس ، ص ١٣ .
(35)كرانجيا ، ص ١٧٦ .
(36)دراسة هيوتوماس ، ص ٣١ ، خبايا السويس .
(37)نانتج ص ٣٧٨ .
(38)نانتج ص . 379
(39)خبايا السويس ، ص ٧١ .
(40)خبايا السويس ، ص ٤١ .
(41)مطاع صفدي ناصر الناصرية ، ص ١٢٠ .
(42)نانتج العرب ، ص ٣٨٠ .
(43)حمدان ، ص ٢٧٨ .
(44)هيكل خبايا السويس ، ص ١٥٨ .
(45)حسين ذو الفقار صبري أضواء على ٥ يونيو ، ص ٢٠ .
(46)جمال حمدان : شخصية مصر ، ص ٢٤٧ .
(47)تراجع دساتير ومنشورات تلك الاحزاب وكتابات مؤسسيها وزعمائها .
(48)انظر عن الانكماشيين والانغماسيين النكبة والبناء للدكتور وليد قمحاوي .
(49)مطاع صفدي : ناصر الناصرية ، ص ١٨٦ .
(50)شخصية مصر .
(51)فؤاد مرسي – الناصرية والنظرية الثورية ، الاداب فبراير ٧١ .
(52)ابراهيم سعد الدين مقال عبد الناصر والاشتراكية العلمية مجلة الفكر المعاصر ، نوفمبر ١٩٧٠ .
(53)جمال حمدان استراتيجية الاستعمار والتحرير ، ص ٣٤٤ .
(54)محمد حسنين هيكل – عبد الناصر والعالم ، ص ٣٢ .
(55)مجلة القضايا المعاصرة المجلد الأول / ج ع تموز ١٩٧٠ . ملف عدم الانحياز من باندونج الى دار السلام ، ص ٢٣٥ .
(56)قسطنطين زريق هذا العصر المتفجر ، ص ١٩ ، دار العلم للملايين .
(57)جمال حمدان استراتيجية الاستعمار والتحرير ، ص ٢٧٠ ، كتاب الهلال .
(58)جمال حمدان ، ص ٢٧٢ .
(59)جمال حمدان ، ص ٢٧٣ و ٢٩٣ .
(60)تكشف خطابات عبد الناصر في تلك الفترة بالتفصيل هذه النقاط وتشرحها شرحا ضافيا كما يوضح كتاب هيكل عبد الناصر والعالم في فصل " عبد الناصر ودالاس " تجربة الثورة مع اميركا وفي فصل عبد

الناصر وايدن تجربة الثورة مع بريطانيا .
(61)انظر محمد حسنين هيكل ، ص ٧٧ .
(62)عدم الانحياز من باندونج الى دار السلام ، مجلة القضايا المعاصرة . وقد حفلت تعليقات الصحف الغربية نفسها على المؤتمر بمشاعر الحنق وهي تتحدث عن استعباد الغرب .
(63)وهم رؤساء حكومات اندونيسيا والهند وباكستان وسيلان وبورما آنذاك . اميد جوجو ونهرو ومحمد علي وكوتيلادالا ويونو .
(64)هيكل ، ص ٧٥ .
(65)فلسفة الثورة ، ص ٦٧ ٦٨ .
(66)هيكل ، ص ٢١٩ .
(67)كرانجيا كيف نجح عبد الناصر ، ص ١٧٣ .
(68)ملف عدم الانحياز مجلة القضايا المعاصرة .
(69)اورد هيكل تفاصيل هذه الاحداث في كتابه .. فصل دالاس سياسة حافة الهاوية .
(70)تحدث هيكل في كتابه المباشر لاعلان اعتراف مصر بالصين الشعبية وربطه بمباحثات خروشوف وبولجانين في بريطانيا وما اتجهت اليه من خطر تصدير السلاح للمنطقة ، فجاء الاعلان ليمكن من شحن السلاح الشرقي عن طريق الصين الشعبية ان اقتضى الأمر ذلك ، ص ٩٠ .
(71)انظر هيكل ، ص ٣٩٧ وفي الكتاب نص نداء نهرو ، ص ٣٩٦ .
(72)من خطابه في مطار موسكو ٢٩ ابريل ١٩٥٨ .
(73)أورد القصة تفصيلا هيكل
(74)من خطابه في أوزبكستان بتاريخ ١٩٥٨/٥/٤ .
(75)أورد هيكل في فصل عبد الناصر وخروشوف من كتابه بعض تفاصيل الازمة . وتراجع خطابات عبد الناصر عامي ١٩٥٩ و 1960 بشأنها .
(76)هيكل ، ص ٣٦٨ .
(77)من رسالة عبد الناصر الى جونسون في 26 ابريل ١٩٦٤ ، انظر هيكل ص ٣٢٠ .
(78)انظر نص الرسالة هيكل ، ص ٢٥٠ .
(79)يراجع مقال عبد الناصر وحركة التحرر الافريقية في مجلة الاداب العدد الخاص عن عبد الناصر ، فبراير ١٩٧١ م .
(80)هيكل ، ص ٣٧١ .
(81)أوفد المؤتمر سوكارنو وموديبوكيتا الى البيت الابيض ونهرو ونكروما الى الكرملين .
(82)انظر جمال حمدان ، ص ٣٣٢ .
(83)انظر القصة كاملة كما أوردها هيكل ، ص ٢٩٧ .
(84)هيكل ، ص ٣٦٧ .
(85)يراجع كتاب " العالم الثالث " الصادر عن مكتبة الشرق .
(86)هيكل ، ص ٤٠٠ .
(87)جمال حمدان ، ص ٣٢١ .
***

انتهي

This document was created with Win2PDF available at http://www.win2pdf.com.
The unregistered version of Win2PDF is for evaluation or non-commercial use only.
This page will not be added after purchasing Win2PDF.